حرف العين

* * *

٣٨٩ - عبد الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين السلطان الأعظم إسماعيل ابن أمير المؤمنين الشريف بن على الحسنى العلوى الينبوعى السجلماسى.

مولده: ولد بمهد سلفه تافيلالت بقصبة الفرخ قرب الدار البيضاء من وادى يفلى، فى منتصف ذى الحجة عام واحد وعشرين ومائة وألف، أُمه الحرة العالمة العاملة خناثة بنت الشيخ بكار المغفرى مارة الترجمة.

صفته: أبيض مشرب بحمرة، مليح الوجه، قصير القامه، خفيف اللحية جدا، مفلج الأسنان، بخده الأيسر شامة، طويل اليدين والأصابع، إذا تكلم تحرك شارباه الطويلان، صغير الرجلين دقيق القدمين، إذا ركب حسبته طوالا، وإذا مشى حسبته لخفة مشيته شابا صغيرا، مهاب لا يكاد أحد يبدؤه بالكلام، كذا وصفه من عاصره.

حاله: قال فى الشجرة الذكية: كان محبا لأهل البيت ذنبهم عنده مغفور، وعيبهم مستور، يتجاوز عن المسىء منهم ويجازى المحسن ويواسى الجميع بالأموال، ويعفو ويصفح فى سائر الأحوال، قال: وكان معروفا بالسماحة يعطى ولا يبالى وخصوصًا للأشراف. هـ.

---

٣٨٩ - من مصادر ترجمته: نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٦/ ٢١٩٧.

وقال فى الدرر البهـية: كان رحمـه الله فى العلوم آية باهرة، وعلى أعدائه صاعقة قاهرة، فكم أحـيا من علوم، وأباد من ظلوم، وجدد من رسوم، وجدلت سيوفه من بذى غـشوم، وكم ضم من حشود، وقهر من حسـود، تصدى للخلافة فى معظم أيام الفـتنة، وقد زاحمه إخـوته فى كل بلدة، ولم يزل يقارع الأهوال، مع معارقة الأحوال، إلى أن تمحضت له ولبنيه من بعده، وناداه منادى يمنه وسعده هـ.

وقال أبو عبـد الله الضعيف: كان ذا رأى وحـزم وإقدام، أيامه[1] أيام دعة ورخاء، وأمن وبهجة حسنة، مستبدًا برأيه دون وزرائه، قاهرًا فى سلطانه إذا أعطى أغنى، وإذا صال أقنى، ذا فضل وكرم وعـلو همة، وافيا بالعهود، شجـاعا يباشر الحروب بنفسـه، دوخ المغرب بأسره، إلا أنه مسلط على العتـاة والطغاة والظلمة، سفاكا لدمائهم، رفيقا بالضعفاء والمساكين واليتامى هـ.

وقال فى الشـجرة الزكـية: فلما تمـكن، قتل من أهل فاس ثلاثـمائة، ومن العبيد أربعمائة فى يوم واحد، وبقتلهم كانت له قوة عظيمة فى المملكة هـ.

وقال غيـره شديد الغضب، ذا بطش غير مـتوقف فى الدماء ولا واضع فى موضع السيف[2] الندى هـ.

قلت: ومن حكم ذى القرنين الإسكندر الملك البعيد الهمة (نعم العون على إصلاح القلوب الموغرة التـرغيب بالأموال وأصلح منه الترهيب وقت الحـاجة إليه) وكأن المتـرجم بهذا كان ينظر فى سيـاسته ولفسـاد الرعية أسرف فى القـتل وتجاوز الحد، فكان ما كان مما سيتلى على المطالع.

(١) فى هامش المطبـوع: «لعله يعنى الأيام التى لم يكن له فـيها منـازع والتى لم يلزم فيـها قصره».

(٢) فى هامش المطبوع: «سيأتى فى قتل أهل تطاوين لعاملهم خلافه».

وقال فى نشر المثانى: هو الواحد فى العز والمقام، الذى اختاره الله لتصريف أمور الأنام، كان ممن عمرت به الأرضون فأحيا أنجادها وأغوارها، وسعد به أهل العز من كل فريق، وتمهدت به السبل من كل فج عميق، وشقت هيبته المشارق والمغارب، ونال الضعفاء بعزمه ما تمنوه من المثارب، وعمر به سوق العلم بعد دروسه، وضحك به وجه الزمان لأهله بعد عبوسه، ولله در من قال فى مديحه:

كفاك افتخارا أن عزك ظاهر ... وجودك منسى به جود حاتم

وكون سجاياك التى فاح عرفها ... سجايا الملوك الشم أولى المكارم

لعمرى لقد ألقت إليك زمامها ... سروج العلا إذ كنت أحزم حازم

وأغناك رب الناس عن جمع عسكر ... برأى مصيب للعساكر هازم

ونفس علا فوق السماكين قدرها ... وعقل غنى عن هداية عالم

فأمنتنا من كل طار وطارق ... وحصنتنا من كل داه وداهم

قال أبو القاسم الزيانى فى تواريخه ما زبدته مع مزيد تنقيح وإيضاح: بويع له بالإمامة العظمى بمكناس بعد وفاة صنوه أبى العباس أحمد الذهبى سابق الترجمة، أوائل شعبان عام واحد وأربعين ومائة وألف كما هو ظاهر نصوصهم، باتفاق من أعيان الديوان، من عبيد ووداياه، وطير الإعلام لإخوانهم جيرانهم أهل فاس وبالغوا فى حصنهم على الموافقة على ما ذكر والتسارع لبيعة المترجم، وهو يومئذ بسجلماسة، ووجهوا إليه جريدة من الخيل لإعلامه باجتماع الكلمة على بيعته، والإتيان به، ولما وصل الكتاب المشار إليه لأهل فاس تلقوه بكل ارتياح وانشراح، وجمعوا أمرهم وشركاءهم على قراءته على منبر جامع القرويين، وبإثر

قراءته أعلنوا بنصره، ولم يتوقف أحد ممن حضر القراءة ولا من غيرهم فى بيعته بشرط تعجيل حضوره كذا قال الزيانى ومن تبعه.

والذى فى الدر المنتخب المستحسن نقلا عن العلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكالى: أنه فى خامس شعبان المذكور قدم من مكناس لفاس جماعة من العبيد والوزراء والكتاب للمشورة والمفاوضة فيمن يتولى أمر المسلمين، من إخوان السلطان المتوفى، فاتفق رأيهم على المترجم لكن أهل مكناس أعلنوا بنصره حالا، وتأخرت بيعة أهل فاس إلى يوم الخميس تاسع الشهر، وزاد فى الدر المنتخب نقلا عن بعض الأعلام أن المترجم لما بلغه اجتماع الكلمة عليه امتنع من الإجابة لذلك، ولم يزل متماديا على امتناعه إلى أن دخل عام اثنين وأربعين فاستخار الله ونهض من تافيلالت أواخر محرم الحرام ووصل لفاس فى خامس صفر.

ثم حكى أقوالاً أخر فى تعيين وقت قدومه فاسا، منها: أنه يوم الأربعاء سابع رمضان عام واحد وأربعين ورجح هذا القول واختاره.

ومنها: أن قدومه كان فى مهل رمضان.

ومنها: أنه فى سابع عشرى شعبان وكان نزوله عند وصوله إلى فاس بالمحل المعروف إلى اليوم بظهر المهراس بظاهر فاس.

وبمجرد تخييمه به هرع الأشراف والعلماء والأعيان لاستقبال جنابه وتقديم مراسم التهانى لجلالته، فقابلهم بكل تجلة وإكبار، وأكرم وفادتهم وأوعدهم بالدخول من غده لزيارة الضريح الإدريسى فرجعوا مبتهجين، وبالثناء على شمائله لهجين، وما كان الغد حتى أخذوا زينتهم وحملوا ألويتهم وأسلحتهم وخرجوا لمخيمه طبق الوعد الذى كان بينهم وبينه، وبمجرد وصولهم ركب المترجم فرسه

وتوجه معهم فى موكبه الحفى الحافل وحاشيته الكريمة، وساروا إلى أن دخلوا على باب الفتوح أحد أبواب مدينة فاس الإدريسية، وكان اختيارهم للدخول على ذلك الباب تيمنا وتفاؤلا بما أضيف إليه.

ثم إن بعض سماسرة الفتن الموقدين لنيرانها من أهل فاس أولاد ابن يوسف رام اغتنام الفرصة بالإيقاع بحمدون الروسى غيلة، حيث إنه كان قتل أباهم، فشعر الروسى بذلك وتنحى عن الموكب، وقيل سبوه والسلطان يسمع واقتفى لأثره فانفلت منهم، ولحق بالمترجم، وأخبره بالواقع وهو إذ ذاك على قنطرة الرصيف فاغتاظ، ورجع على طريق جامع الحوت، وذهب على جزاء ابن عامر، وخرج على باب الحديد، وسار إلى أن دخل دار الملك من المدينة البيضاء فاس الجديد.

وقيل: إن ذلك كان والسلطان بالمحل المعروف بين المدن، وأنه سار على حومة البليدة، وخرج على باب الجيسة، وسار إلى أن بلغ فاسا الجديد، ولم يزر الضريح الإدريسى تحرزًا من توقد نيران الفتن على حين غفلة، وذهب القوم فى إعراض المترجم عن الزيارة كل مذهب.

ثم بعد أن أحاطوا علما بالسبب الموجب للتخلف طلع لدار الملك أعيان البلد من أشراف وعلماء ووجهاء ببيعتهم، وكان القاضى الأعدل أبو العلاء إدريس ابن المهدى المشاط، هو الذى تولى إنشاءها وكتبها، وقد أوردها بنصها أبو القاسم الزيانى فى البستان مؤرخة بسابع صفر عام ١١٤١، وتبعه فى جلبها صاحب الجيش، والاستقصا، والدار المنتخب المستحسن، تركت نقلها هنا اختصارًا، لكن صاحب الاستقصا أوردها بتاريخ سابع رمضان العام لا صفر وهو فى نظرى أصوب[1] وأصح، ولما قدم الوفد الفاسى للحضرة السلطانية ببيعتهم المشار لها

(١) فى هامش المطبوع: «لأن صفر عام واحد وأربعين لا زال مولاى أحمد الذهبى قائما ولم يمت حتى وصل شعبان هـ».

أبدوا أعذارا عما أضمره السفهاء، فأعرض عنهم فيما يتعلق بذلك الموضوع، ووصلهم بقنطار ونصف ذهبا، اقتسموه أمامه بينهم.

ثم أمرهم بتهييء خمسمائة رام للتوجه معه للعاصمة المكناسية طبق عوائدهم المقررة فى ذلك، مع الملوك قبله من سفله وغيرهم، فأجابوا بالسمع والطاعة، ثم نهض المترجم لمكناس وفى معيته الخمسمائة رام المذكورة.

ولما كان على مقربة من العاصمة المكناسية وجد عسكر العبيد وقوادهم وقواد العرب والبرابر فى استقباله فرحين مستبشرين، فأدوا لجلالته ما يجب من مراسم التهانى والترحيب والإعظام والإجلال، ثم انضافوا لجنده وسار وألوية النصر تخفق، إلى أن حل بعاصمة والده مكناسة الزيتون فى موكبه المدهش العجيب الترتيب، وما استوى على العرش حتى وفد على شريف أعتابه الأشراف والعلماء والأعيان ببيعتهم العامة، ثم صارت وفود القبائل الشاسعة والدانية تفد على حضرته ببيعاتها، وهو يستقبل كلا بما يليق به، ولما فرغ من شأن الوفود فرق الصلات على سائر الطبقات كل وما يستحق، إلا أهل فاس فإنه حرمهم نواله.

ولما كان عيد الفطر قدم على الحضرة شرفاء فاس وعلماؤها وأعيانها بالهدايا العيدية كغيرهم من الحواضر والبوادى لحضور العيد مع الجلالة السلطانية وفق المقرر المعهود، ولما رجع من مصلى العيد فرق الصلات والجوائز على جميع تلك الوفود الوافرة والعساكر والجيوش غير أهل فاس، وصلات الوفود كلما وفدوا على الجلالة السلطانية ومن ذكر معهم كانت من مألوف العادات عند ملوك دولتنا، ولا سيما فى أيام الأعياد، واستمر العمل على ذلك ولم يتعطل إلا فى هذه الأزمنة الأخيرة، ولما كان يوم ثانى العيد أمر بإحضار أهل فاس فأحضروا بمشوره السعيد وهو على سرير ملكه، ولما مثلوا بين يديه أمرهم بالكتب لإخوانهم بتسليم البساتين (المعاقل)

والقصبات لأن ذلك ملك للسلطان ومن وظيفه، وأوعدهم إن هم امتنعوا بهدم ديارهم عليهم، فلم يكن لهم إذ ذاك بد من الامتثال والجواب بالسمع والطاعة.

ولما جن الليل ارتحلوا إلى بلادهم فاس، وقرروا لإخوانهم الأوامر السلطانية، فاتفق رأيهم على رفض ذلك وعدم الإجابة له، واجتمع فقهاؤهم وأشرافهم وأعيانهم للمفاوضة والنظر فى وجه يمكن به خلاصهم مما ذكر، وبإثر ذلك ورد عليهم من الحضرة السلطانية كتاب بتسليم ما ذكر لجانب السلطان، فحاصوا حيصة حمر الوحش وهاجوا وماجوا، ثم اتفق رأيهم على أن يعينوا وفدا يوفدونه للشفاعة لدى المترجم أولا، والتزموا بأداء جميع الوظائف التى كانوا يؤدونها لوالده وإعطاء الضمان على ذلك، فلم يرفع لهم رأسا، وردهم ناكصين على الأعقاب، ثم اتفق رأيهم ثانيا على أن يوجهوا لسدته الكريمة هدية تبرع بها تجارهم، وعينوا جماعة من أعيانهم توجهت بها فتعرض الودايا إليهم ونزعوا منهم الهدية وسلبوهم من كل ما بيديهم وأودعوهم سجن فاس الجديد، وصرحوا لهم بأن صاحب الترجمة أمرهم بحصار فاس الإدريسية.

ولما علم بذلك أهل فاس القديمة صمم العامة منهم على رفض بيعته، ونازع العلماء فى ذلك محتجين بأن بيعته فى أعناقهم فطاعته واجبة عليهم، إلا إن أمرهم بكفر براح فأعارهم الجمهور أذنا صماء وأعلنوا بخلع ربقة بيعة المترجم ورفض طاعته، ونادوا فى المدينة من أراد الخروج لبلاده فليتهيأ لثلاث، وأغلقوا أبواب البلد وذلك فى سادس الشهر المذكور.

ولما اتصل هذا النبأ بالمترجم صمم على محاربتهم، فجيش الجيوش وخرج لإرغامهم على الرضوخ للطاعة فى خامس عشر شوال المذكور، وأحدقت عساكره الجرارة بفاس، وعثت فى السبل الموصلة إليها، وقطعت أشجار جناتها، وهدمت مبانيها، وأفسدت الزروع والبحائر، وقطع عنهم الوادى، وحاربهم من كل ناحية

وباب، والمدافع والمجانيق تمطرهم بوابل كـورها وأحجارها المدمرة، واستمـر القتال عليهـم بالليل والنهار حـتى سئمـوا وكلوا وملوا وضاق بـهم المتسع، ويئـسوا من النصـرة، وبارت حيلهم، وارتفـعت الأسعار، وأنتـنت المدينة من كثـرة الأوساخ وعدم الماء، ولم يسعهم إلا الجنوح إلى السلم، فسـعوا فى الصلح فاشترط المترجم عليهم تسـليم المعاقل والقصـبات، فكبر عليـهم ذلك واستـأنفوا القتـال وأظهروا التجلد.

وفى الرابع والخامس من ذى القعدة التـقى الجمعان ووقعت بينهما مـعركتان خفـيفتان ببـاب الجيسة، وفى الثـانى منه وقعت معـركة ثالثة بباب الفـتوح، وفى الثالث عشر وقـعت معركة كذلك، وفى الخامس عـشر منه ركب السلطان فى ملأ من جيشه فلقيه أهل فاس تائبين وفى عفوه راغبين ولأمانه آملين.

فأجـابهم لما طلبـوا بالشرط المذكـور، فلم يقبلوا، وفى الـواحد والعشـرين وقعت معركة عظيمة بباب الجـيسة من الصبح إلى الزوال ومات من أهل فاس نحو الثلاثيـن، منهم: مولاى عبـد القادر بن عـبد الرحـمن الدباغ، وعبـد الخالق بن خالد، وعبد الله بن علال.

وفى الثانى والعـشرين وقعت مقـتلة بباب الفتـوح مات فيهـا من أهل فاس ثلاثة أنفار.

وفى خامس ذى الحجة نزلت قنبلة بالعطارين وأهلكت بوجيدة بن عيشون.

وفى عيد النحر نزلت قنبلة أخرى على قبة الضريح الإدريسى أصابت أناسا، هلك منهم رجل وجـرح باقيهم، وكـان ممن جرح العلامـة أبو العباس أحـمد بن الخياط بن إبراهيم الدكالى، وعطلت صلاة الجمعة.

ومن الغد وقعت معركة بباب الجيسة مات فيها من أهل فاس نحو العشرين، فتوسط أهل فاس للسلطان ببعض الوجهاء الذين اعـتقدوا أن شفاعته لا ترد لديه، فأبى إلا إذا سلموا البساتين والقصبات، فامتنعوا وتمادوا على القتال.

وفى فاتح محرم عام اثنين وأربعين كان قتال عظيم ببابى الجيسة والمسافريين، مات فيه من أهل فاس نحو الثلاثين رجلا، واستؤنف القتال من الغد ومات فيه خلق، وارتفعت الأسعار وبلغ وسق القمح ثلاثين مثقالا، وزادت نيران الفتن توقدا، وتكاثر الهرج والمرج، وجعلت المحال السلطانية ترمى القنابل المدمرة على المدينة.

وفى ثالث صفر وقعت معركة أول النهار، ولما كان العشى اتفق أهل فاس على الهجوم على المحال السلطانية من سائر الجهات، فخرج اللمطيون من باب الجيسة للمحلة التى بوادى المالح وكان قائدها موسى الجرارى فوثبوا عليها، وفر أهلها واستولى أهل فاس على جميع ما فيها، وكان من جملة ما غنموا مدفعان.

وخرج الأندلسيون وأهل العدوة من باب المسافريين واستولوا على جميع ما كان مدخرا بالسيد أبى جيدة حيث كان الحصن المنيع لتلك المحال، وساقوا من وجدوه من الجند هنالك إلى الباب وقتلوهم شر قتلة.

ومن الغد نصبوا المدفعين اللذين غنما بالقصبة البالية وجعلوا يرمون بهما فاسا الجديد.

وفى التاسع عشر من الشهر انضم الجيش السلطانى بعضه إلى بعض، وكان المترجم حاضرا بنفسه، ووقع قتال عظيم بين الفريقين انجلى بانهزام المحال السلطانية، ولم يمت من الجيش الفاسى غير ستة.

ومن الغد فقد الزرع بالمدينة، واشتد الهول، وعظم المصاب، ووقع التنازع بين العامة والرؤساء، وضعفت قوى المقاتلة عن المقاومة، ولم يكن لهم بد من الإذعان وتسليم ما طولبوا بتسليمه للجناب السلطانى.

وبسبب ذلك تم الصلح على يد القائد محمد السلوى بالضريح الإدريسى، وذلك يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول عند صلاة الظهر.

ثم اجتمع رؤساء الأشراف والعلماء وذوو النجدة والوجاهة، وطلعوا فى معية القائد السلوى المذكور لدار الملك لاستئناف تقديم الطاعة فقبلهم المترجم وقابلهم بالعفو والإغضاء، ووصل الشرفاء والعلماء بألف دينار، وكسا الأعيان، وولى عليهم الحاج على السلوى، وانطفأت نيران تلك الفتن.

وفى الثالث عشر من ربيع النبوى عمر الجند السلطانى القصابى مع البساتين (المعاقل).

وفى العشرين منه نهض صاحب الترجمة من فاس ووجهته العاصمة المكناسية، ولما حل بها وجد القبائل استأنفت عملها الأول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث فى الطرقات، فأصدر أوامره للعبيد بتجهيز الحركة لتمهيد البلاد، وقطع جرثومة الفساد.

ثم نهض قاصدا تادلا لقمع آيت يمور الذين نزلوا بها لما أخرجهم آيت ومالوا من رأس ملوية، وأضروا بأهلها، ولما أحسوا بمقدمه فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى، فاقتفى أثرهم وأوقع بهم شر وقعة بوادى العبيد نهبت فيها أموالهم وقتل منهم آلاف.

ولما رجع المترجم لتادلا قتل من أعيان رماة أهل فاس عشرين، وكتب لأهلهم يعتذر عن قتل من قتل منهم مبينا لهم وجه ذلك وموجبه، وأمرهم بتوجيه حركة أخرى فامتثلوا وعينوا من يتوجه للحركة وفق الأمر الصادر إليهم، وكان الذى استعرضهم حمدون الروسى برأس الماء، وبعد الاستعراض توجهوا للحضرة السلطانية.

ومن غد يوم الاستعراض قتل الروسى المذكور عبد الواحد بتير، ومحمد بن الأشهب بباب السجن وأمر بجرهما، ثم من الغد أصبح يهدم أبواب المدينة، فهدم

باب المحروق، وباب عـجيسة، وباب الجـديد، وكان ذلك لما تقدم من الاستـعانة بغلقها على التمرد ونبذ ما لزم من الطاعة.

وفى الخامس والعشـرين من ربيع الثانى بعث المترجم للعلامـة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام بنانى فلحق به بمكناس، ولما مثل بين يديه سب وجدع وقرع ووبخ لأمر سوء بلغه عنه، وعزله عما كان بيده من الوظائف بجامع الأندلس، ثم عفا عنه وأغضى.

وفى الحادى عـشر من جمـادى الثانية عـزل على السلوى عن عمـالة فاس وسجنه لما تظاهر به من السوء لأهل فاس وقتله رئيس أهل العدوتين الشيخ دحمان المنكاد، وأسند عمالة فاس للبادسى بن حمدون الروسى.

وفى العشرين من رمضان عزل أبا العبـاس أحمد الشدادى عن قضاء فاس، وولى مكانه أبا الحسن على بوعنان.

وفى الثانى عشر من شوال عزل البـادسى عن عمالة فاس، وولى مكانه عبد النبى بن عبـد الله الروسى، فأسـاء السيرة فـعزله، وولى مكانه حـمدون الروسى وأوصاه بالرفق واللين، وحذر وأنذر، ولكن ما بالذات لا يتـبدل فلم يزده التحذير إلا إغراء:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وفى أوائل جمادى الأولى صدر الأمـر بهدم القصبة البالية وحطب مـا فيها من الأجنة، ولما علم السلطان بـذلك سجن الناظر ونكل بمن فـعل ذلك من الولاة محتجا بأنه لم يأمر بذلك، وإنما أمر بتـخفيف بعض الأشجار التى لا غلة لها، ثم أمر ببناء ما تهـدم وغرس ما قلع، وفى أواخر شـعبان قتل عبـد الواحد بن سودة الذى كان أمين المواريث قصاصا.

وفى محرم الحرام عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف ابتدأ فى هدم أسوار المدينة، وصرح بأنه إذا فرغ من هدم الأسوار يشرع فى هدم الدور وأمر بحمل الأنقاض لفاس الجديد.

ثم لما اتصل بالمترجم عتو الروسى وطغيانه، كتب كتابا بتوبيخه وتهديده وإيعاده قرئ على منبر القرويين، ولما تيقن أن لا ملجأ له ولا منجى مما جنت يداه فر لزاوية جبل زرهون، حيث مدفن البضعة النبوية الطرية، إدريس بن عبد الله الكامل، ولما رجع المترجم من حركته وتوجه لزيارة الضريح الإدريسى تعلق حمدون بأذياله فلم يلتفت إليه، ثم بعد ذلك أحضره بين يديه وعدد عليه ما ارتكبه من الجرائم التى لم يجد لها مدفعا، ثم أمر بتوجيهه لفاس وقتله قصاصا، فأنشد بين يديه ما أنشده بعضهم لأبى جعفر المنصور العباسى:

إنا بطاعتك الألى ... كنا نكابد ما نكابد

ونرى فنعرف بالعدا ... وة والبعاد إذا تباعد

هذا أوان وفاء ما ... سبقت به منه المواعد

فأطرق المترجم ساعة ثم قال له وهبتك لشيبتك، وأبقيتك لصبيتك، على أن لا تقرب ساحتنا، ولا تحوم حولنا، وإلا حلت بك عقوبتنا، وولى على فاس كاتبه الطيب بن حلوة، وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشر شعبان، وكان شديد الشكيمة على أولاد العرب والعلماء، ظلوما غشوما، لم يتول على فاس أتعس وأشأم منه، حتى سمى حجاج الوقت، يقال: إنه هو الذى أغرى المترجم على نهب زرع العرب الذى كان بخزائنهم، فأمر بحيازته، وتوجه الأشراف والعلماء للسلطان فى الشفاعة فردهم خائبين، واستمر ابن حلوة على عمله من النهب والغصب والقتل والتدليس وتشويه وجه الحقيقة إلى أواخر رمضان وقيل شعبان، فنكبه المترجم وعزله وغربه إلى مكناسة الزيتون، فلم يزل بها فى شبه عقال إلى أن لقى ربه بعد

خمسة أشهر، وولى على فاس مكانه عبد اللطيف بن عبد الخالق الروسى، ووجه به عاملا فوصل إليها فى سابع شوال.

وفى ربيع الثانى أصدر المترجم ظهيرًا شريفا نصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع بداخله (عبد الله بن أمير المؤمنين إسماعيل الحسنى الله وليه ومولاه) وبزواياه اليمن والإقبال وبلوغ الآمال والسعد:

«كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وأطلع فى سماء المعالى شمسه المنيرة وبدره، بيد حامله الفقيه الأجل، المجود الأفضل، السيد الحاج أحمد بن عاشر العامرى يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته أننا جددنا له بحول الله وقوته حكم ما بيده من ظهائر سيدنا الوالد قدس الله روحه فى أعلى الجنان آمين، وظهائرنا الكريمة التى تضمنت توقيره واحترامه على مر الليالى والأيام، والسنين والأعوام، فلا سبيل لمن يروم أو يحدث فى جنابه الملحوظ نقصا ولا زيادة، وأبقيناه على مرتبه الذى كان يقبضه من وقف أحباس مسجد سلا الأعظم عمره الله بدوام ذكره، وقدره خمسة وعشرون أوقية دراهم من كل شهر إعانة له على ما هو بصدده من تعليم الطلبة بالمسجد المذكور، وعلى الفقيه المذكور بالاجتهاد فيما كلف به، والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه والسلام فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف».

وفى السابع والعشرين من شوال ١١٤٣ وقع الشروع بأمر المترجم فى هدم مدينة الرياض المارة الذكر التى كانت زينة مكناسة وبهجتها، وفيها دور العمال والكتاب والأوداية وأهل الدولة الإسماعيلية، والتى كان بها المسجد الإسماعيلى الأعظم والمدرسة والأسواق والحمامات، وكان يقصدها التجار بالبضائع، فلم تمض عليها عشرة أيام حتى صارت كدية تراب.

وكان قد أشرف على الشروع فى هدمها بنفسه وفى نظرى أن أحسن ما يعلل به هدمه إياها زيادة على ما أسلفناه، هو أن صدور الدولة وذوى الحيثيات من رؤساء الجيش ألهتهم قصورهم الفاخرة بزخاريفها عن القيام بوظائف الدولة،

واتفق ما حدث من الفتن بعد وفاة والد المترجم وأساطين دولته وساساتها، ولما آل الأمر للمترجم لم يجد من أولئك من يعيره لتنفيذ أوامره أذنا صاغية، بل قوبل جلها إن لم نقل جميعها بالرفض وإبداء العلل الواهية زيادة على كونها صارت بعد أبيه مركز المؤامرات السياسية عليه وعلى إخوته.

وأثناء هذا وسوس بعض شياطين الإنس لصاحب الترجمة فى أبى العباس أحمد بن على الريفى حتى أوغر صدر السلطان عليه، وصمم على المكر به، فطير له الإعلام بذلك بعض أصدقائه من الحاشية الملكية فخاف بطش الملك ووجه بهدية ذات بال جمع فيها تيجانا مرصعة بنفيس الأحجار وأموالا طائلة وأوفد معها ثلاثمائة نفر من أعيان إخوانه أهل الريف يبرهنون للمترجم على إخلاص مرسلهم ورضوخه للطاعة وبراءته مما ألصق به ويطلبون أمانه فأمر بقتل جميعهم، ولما اتصل ذلك بالريفى المذكور قام لإيقاد نيران الفتن على ساق حتى اضطرمت وتسعرت وتطاير شررها، وعم الفساد الحاضر والباد، وقطعت السابلة وكان ما كان مما لست أذكره.

ثم بلغ المترجم عيث آيت يمور وتمردهم واشتغالهم بالسلب والنهب، فحشد إليهم جيوش العبيد والودايا ونزل بساحتهم من غير تأهب لهم ولا استعداد للمقاومة، فأخذهم أخذًا وبيلا، وقتل أبا يعقوب الحنصالى شر قتلة، إذ وجده نازلا بين أظهرهم، قال فى نشر المثانى: ولما قتله منع الناس من دفنه حتى تمزقت أشلاؤه وتفرقت أعضاؤه، فعل ذلك به لئلا يتوهم ضعفة العقول من أصحابه أنه لم يمت لأنه كان يخالط علم الحدثان.

وفى العام نفسه قتل مائتين من لصوص حجاوة على قطع الطريق على المارة ببلادهم، ولما قتلهم خرج أهل مكناس والطالبون للفرجة فى المقتولين بباب البطيوى، فاتفق خروج المترجم فى تلك الساعة على ذلك الباب، فلما رأى القوم

قصدهم ظانا أنهم المأمور بقتلهم ففروا خوفا منه ودخلوا كهفا على مقربة من المحل يختفون فيه، فقصدهم حتى وقف على باب الكهف وأمر من كان معه بغلق باب الكهف عليهم بالأحجار فأغلقوه غلقا متقنا، ومات جميع من به ولم يوقف لهم بعد على خبر، ولم يعرف عددهم، وفى العام أيضا أمر عبيد مشرع الرمل بالتهيؤ للحركة لجبال فازاز.

وفيه ولى أبا عبد الله محمد وعلى الزموري عمالة فاس وأمره باستصفاء أموالهم وأن لا يترك لهم قيراطا، إذ كان البعض نقلوا إليه أن المال أطغاهم وأنهم يحاولون الخروج عن طاعته وشق العصا عليه، فتوجه الزمورى المذكور إلى فاس ونزل بدار أبى على الروسى من حومة المعادى وصار ينقب على ذوى اليسار ووظف عليهم أولا غرامة قدرها خمسمائة ألف مثقال وبالغ فى التشديد فى اقتضاء ذلك منهم، وعمَّر بهم السجون، ومن تغيب يلقى القبض على أقاربه.

ولما استوفى العدد المذكور ممن ذكر صرف وجهته لأهل الحرف والملاكين والبطالين، وقام بسبب ذلك هرج ومرج، وفر الناس لشواهق الجبال والقرى والأمصار الشاسعة، وامتدت ولايته عليهم ثلاثة عشر شهرا، وكان كلما قبض شيئا وجهه للمكلف بالداخل للعاصمة المكناسية.

وقد ساق العلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكالى هذه الحادثة ببعض مخالفة وزيادات ونص ماله فى تقاييده: وفى هذا الوقت قدم عبد الرزاق بن على ويشى، وقبض جميع تجار أهل فاس وسجنهم ودخل ديارهم وحوانيتهم، وشرع فى قبض المال منهم، ثم دفعوا مائة وعشرين قنطارا، وكان من جملة من قبض فى المال الحاج محمد الأندلسى الرحوى، أخرجوه من حرم سيدى أحمد الشاوى، وأدخلوه السجن وضربوه حتى مات، وطوفوه على النعش وهم يقولون هذا جزاء من لم يعط مال السلطان، وكان ذلك فى صفر وجاء العفو يوم الجمعة السادس عشر منه.

وفى الحادى والعشـرين منه ذهب عبد الرزاق بمال التجار الذى قـبض ودفعه للسلطان، وكان معه التـجار الذين دفعوه، فأمرهم بالزيادة عليـه، وسجن بعضهم وقد كان عبـد اللطيف الروسى من جملتهم، وقد كان عبـد اللطيف هذا أمر بقتل السيـد الحسن بن السيـد عبد الـعزيز بن إبراهيم الموقت بمنار القـرويين بإشارة من القاضى السيد على بو عنان، وقتل بعد صلاة العصر من يوم السبت خامس المحرم عام ١١٤٥.

ولما تلاقى عبد اللطيف المذكور مع الـسلطان وتكلم معه فى شأن المال الذى دفع أهل فاس غضب عليه السلطان من أجل الرماة، وأمر بضربه بالسياط، فضرب ثم ثمانمائـة، ثم طعنه برمح وأمر بذبحـه وجره لباب الملاح جـزاء وفاقًـا بما فعل بالسيد الحسن المذكور.

ثم تولى حكومـة فـاس الطالب محـمـد بن على ويشى أخـو عبـد الرزاق المذكور، وكـان حسن الأخـلاق يوقر الأشراف والـعلماء وأبناء الصالحـين، فكان جعل للطلبة خراجا يقبضونه من وفر القرويين، إلا أنه كان فظا غليظا على التجار لا يقبل منهم عـذرا، وقبض منهم زمن ولايته أموالا عـريضة، وانتفى بسببـه من فاس من أهل الغـرامات مـا لا يحصى، وبقى حاكـما بفاس مـن حين قتل عـبد اللطيف الروسى إلى وقت نجاة المولى عبد الله بنفسه كما يأتى هـ.

وفى ١١٤٤ لما كان المترجم وجه للمولى الطيب الوزانى فى شأن الباشا عبد النبى الحيانى، وقـدور السهلى، وقد كانا مستـجيرين بوزان وتراخى المولى الطيب فى توجيهـهما إليه، بعث له قائلا: والله إن لم تأت بهـما حتى أهدم عليك تلك الدشرة، وأجرك فـى أزقتها، فذهب إلـيهما فامـتنعا من الخروج فأعطـاهم عهودا ومواثيق بأنه لا يتـخلف عنهم ولا يسلمهم، فخرجـا معه وخرج معـهم جمع من الأشراف والصبيان أولادهم بالألواح.

فلما وصلوا لحضرته وأعلم بورود عبد النبى نهض وخرج إليهم راجلا، وقبض على لحية المولى الطيب وهزه منها وقال له: أخى فارقنى فما أدخلك بين عبيدى ورعيتى.. فقال له: أريد من الله ومنك أن تعتقهما، فقال له: إن أعتقتهما فلست بولد لإسماعيل بن الشريف، والأشراف والصبيان واقفون وبيدهم غطاء جدهم المولى عبد الله الشريف، وغطاء المولى التهامى.

والتفت لعبد النبى وصار يخطب عليه ويعدد مساويه، وكان من جملة ما خاطبه به: إننى ما نسيت ولا أنسى ما شافهتنى به على رءوس العبيد: والله إن قبضتك يا عبد الله بوسبيبط الصغير[1] ربيب الدغمى، حتى أرمى على رجلك كبلا (قيدا) من عشرين رطلا، وألقيك فى الدهليس إلى أن تموت فيه، وتكررها مرارا.. وتذكر اليوم الذى قبضت فيه لجام فرسى ودككته إلى ورا، إلى أن سقطت من فرسى على الأرض وقلت لى: اذهب من هنا، إنما أنت طفل صغير، فطلعت إلى ربوة وبكيت حتى كاد أن يعود الدمع دما، ومن أجلك أنفقت بيت المال كان إذا أتى إلى صاحبك بكتابك أو كلامك لم يكن لى بد من إعطائه قنطارا سخرة له اتقاء لشرك، ثم قال لمن حوله اقبضوا الظالم عدو الله فصاروا يجرونه وقد كان قابضا بيد المولى الطيب، فقطعوا يده وأخذوه، وكذلك فعلوا بصاحبه قدور السهلى، ذكره الضعيف.

وفى عام ستة وأربعين، عقد للباشا قاسم بن ريسون على جيش من العبيد منتظم من خمسة عشر ألف فارس، وللقائد عبد الملك بوشفرة الأودى على ثلاثة آلاف فارس من إخوانه الودايا، ووجه بالجميع لجبل آيت ومالوا، ولما عبرت تلك الجنود، وادام الربيع على مجاز البروج، خيمت بآدخسان، ولما رأى أولئك البرابر العتاة ما لا قبل لهم بمقاومته، فروا للجبال فاقتفى الجند أثرهم إلى أن توغلوا فى

(١) فى هامش المطبوع: «كان المترجم كذلك رقيق القدمين حذاءهما كأحذية الأطفال كما تقدم فى وصفه».

وعـر تلك الجـبـال، ثم وجه البـرابر ذات ليلـة من سد الـثنايا التى دخلوا منهـا بالأشجار الأرز.

ولما كان الصباح هجموا عليهم من كل ناحية وقاتلوهم قتالا شديدا فى تلك الأوعار التى لم يقـرءوا لها حسبـانا، فهزم الجيش هزيمـة شنعاء، وولوا الأدبار، فوجـدوا الثنايا قد سدت دونهم فازدادوا فـشلا ورعبـا، ولم يسعهم غيـر الترجل وتسليم الخيل والسلاح والزاد، ولما تجردوا من كل شىء وتركـوه غنيمة باردة حقن البربر دماءهم، ولم يقتلوا أحدا منهم.

ولما لحقوا بالمترجم لمكناس حفاة عـراة منحهم وكساهم ووعدهم بإخلاف ما ضاع لهم، وأمرهم بالرجوع لمشرع الرمل فرجعوا وقد بذر فى قلوبهم بغضه، شأن ما جلبت عليـه الطباع فيـمن تسبب لهـا فى لقى ما تكره، وإلا فالمتـرجم إنما كان وجههم لحسم مادة المفسدين.

وفى عام سبعة وأربـعين: اتفق العبيد والودايا على قتله والتمثـيل به انتقاما منه لإسرافه فى قـتلهم حتى كاد أن يستولى على رءوسهم وصناديـدهم سعيا وراء كسـر شوكة استـبدادهم وطغيـانهم على الملوك وإيقادهم نيران الفتن فى الرعـية، وأخذًا بدم صنوه أبى مروان عبد الملك الذى خنقوه، وكان قصده استئصال شأفتهم لتحققه أنه لا يستقيم مـعهم ملك لأحد، قالوا بلغ عدد من قتل منهم عشرة آلاف ونيف، «**إنما جزاء الذى يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**».

ثم إن المترجم أنذر بما صمـم عليه العبيد من اغـتياله، فخرج من العـاصمة المكناسية يوم الأحد ثـامن وعشرى ربيع الثانى ليلا ناجيا بـنفسه، ومن الغد الذى هو يوم الاثنين بلغ لفـاس خبر خـروج السلطان، فهرب عـاملها محـمد بن على

ويشى وأتباعـه، وسار المترجم إلى أن بلغ آيت أدراسن ففـرحوا به وآووه وعززوه إلى أن بلغ لمشرع بولعوان.

وكان هنالك لجانب السلطان عدد وافر من الزرع، ففرقه فى أتباعه وضعاف الناس، إذ كان الغلاء بمراكش ونواحيها، فـفرح الناس واطمأن المترجم وودعه أهل تادلا، وانقلبوا لحللهم ومحالهم، وسـار هو إلى مراكش، ثم تارودانت، وأقام بها أياما، ثم انتـقل إلى السوس، ثم وادى نول حـيث استقـرار أخواله المغـافرة فنزل عليهم.

وكان فى مـعيتـه ولداه أبو عبد اللـه محمـد مار الترجـمة دون بلوغ، وأبو العباس أحـمد فوق البلوغ، قاله الزيانى: وقال غـيره: إنه ترك الأول من الولدين المذكوريـن مع جدته خناثة بمكناس، وهو مـا حقـقه فى الدر المنتـخب وهو الذى يشهد له التاريخ.

وكانت مدة خلافتـه هذه خمسة أعوام وثمانية أشهـر ونصف على ما شهره فى الدر المنتخب، وكانت مدة مقامه بوادى نول عند أخواله ثلاثة أعوام.

أما العبـيد فإنهم لما علموا بذلك وجـهوا لسجلماسة جـريدة من الخيل تأتى إليهم بصنو صاحب التـرجمة أبى الحسن على الأعرج ليبايعـوه، على ما سنفصله بعد فى ترجمته بحول الله.

وفى عام ثـمانية وأربـعين ومائـة وألف: كانت فـتنة عبـد الله بن محـمد الكرسـيفى مـدعى المهـدوية بالسـوس، وارتفع صـيتـه فى تلك الأصـقاع، مـلأ أرجاءها، واقتحم حصن آكدير عنوة، وفـعل بأهلها ما يخجل وجه المروءة، وخيم بالمحل المعروف بفـونت تحت أبى القناديل، ومنعهم من الماء حـتى مات جل تلك البلاد نساء ورجالا وصبيانا عطشـا، وحيل بينهم وبين المقابر العامة فصاروا يدفنون

موتاهم بالدور والمساجد، وكان الفتان المذكور يحث أهل سوس على غزو أهل آكدير ويقول: إن ثلثهم نصارى، وثلثهم يهود، وثلثهم عصاة حصب جهنم.

فأجابه لذلك خلق كثير من أهل سوس، والحال أنهم لم يروا البحر قط، ولما نزلوا بساحته أخذوا يشربون ماء البحر ويلثون به سويقهم، فهلك منهم عدد عديد، ثم عاد الثائر لتارودانت مصممما على الإيقاع بهوارة، ولما شعروا بمراده اتخذوا سائر الاحتياطات اللازمة وأجمعوا أمرهم على اغتياله، فأوعز إليه بذلك بعض المعتقدين له، فأشاع أنه يريد زيارة أبى حفص عمر وهارون برأس الوادى، فتبعته هوارة إلى أن لحقوا به بثلاثاء تماصت بزاوية السيد عياد، وأخذوا يلعبون بالبارود مع أصحابه مظهرين الفرح به والطاعة له، فلم يأمن فيهم، ونجا بنفسه فاقتفوا أثره إلى أن لحقوا به بصهريج آيت أيوب فى تنزرت، وأطلقوا عليه أفواه مكاحلهم بالرصاص ففر ودخل دار الشيخ أحمد ويدير، ومات بداره ونهب آيت يش ماله.

قاله الضعيف: وقد وقع لصاحب الدر المنتخب فى سوق هذه الحادثة تخليط واشتبه عليه أمرها واشتبك وارتبك، وبموت هذا الفتان الأفاك اطمأنت نفوس أهل تلك البلاد، وأمنت سبلهم، وكان الذى قتله هو ابن همان وماين الهواريان ويعيش الزكنى المنبهى.

ثم وفد المترجم على تارودانت واستولى عليها وعلى أحوازها، وبويع له بتلك الأصقاع، ووقعت بينه وبين هوارة معارك عظيمة انجلت بانهزامهم وفشلهم كل الفشل، ثم نهض من تارودانت وخيم ببلاد السراغنة وأوقع بهم وقعة شنيعة، وحكم السيف فى أربعمائة رجل من عوامهم، ومائة من طلبتهم، حيث إنه وجدهم هدموا مسجد القصبة وصيروه بلاقع، وكان ذلك كما قال الضعيف سنة ١١٤٨ ثمان وأربعين.

وانظر هذا التاريخ مع ما سبق أنه بقى بوادى نول ثلاثة أعوام، وكذلك يخالفه ما فى الاستقصاء من أنه لما كان شهر ذى الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادى نول، ووصل إلى تادلا، فاهتز العبيد له وتحدثت فرقة منهم برده إلى الملك، وخالفهم سالم الدكالى فى جماعة من شيعته، وقالوا: لا نخلع طاعة مولاى على، إذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا فى خلع المولى عبد الله، وتولية أخيه مولاى على.

ثم إن شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعته، ففر سالم فيمن معه من القواد إلى زاوية زرهون مستجيرا بها.

ولما سمع بذلك السلطان المولى على فَرَّ من مكناسة إلى آخر ما يذكر فى ترجمته، ولما فر اجتمعت كلمة العبيد على ذلك أهل فاس وسائر القبائل، ثم إن سالما الدكالى الذى بزرهون كتب إلى أهل فاس يقول لهم: إن الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله، وبيعة سيدى محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة، والمشورة لعلمائكم، فأجابوه بأن قالوا: نحن تبع لكم، فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالى وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة إلى زرهون، وقبضوا على سالم الدكالى ومن معه من القواد وبعثوا بهم إلى السلطان المولى عبد الله بتادلا، فاستفتى فيهم القاضى أبا عنان، وكان يومئذ معه فأفتاه بقتلهم هـ، ونحوه فى الدر المنتخب، والترجمان المعرب، وغيره من كتب الزيانى.

لكنهم صرحوا بأن القبض على الدكالى وأنصاره كان بإيعاز من المترجم، وأنه لما ألقى القبض عليهم قيدوا بالحديد ووجه بهم لصاحب الترجمة وهو يومئذ بتادلا، وهنالك وقع استفتاء من ذكر فيهم وقتلهم، واستؤنفت البيعة للمترجم،

ونهض من تادلا وسار إلى أن خيم بأبى فكران وتوجه لاستقباله، ثم أهل فاس ومكناسة أشراف وعلماء وأعيان، ولما مثلوا بين يديه وقدموا إليه بيعتهم سب وجدع وهدد وأوعد على ما صدر منهم وتكرر من شق العصا والخروج عن الطاعة، وقتل جماعة من أعيانهم، وعزل قاضى العاصمة المكناسية أبا القاسم العميرى، وولى مكانه الطالب بوعنان، وألقى القبض على عاملها مسعود بن عبود، وولى على فاس محمد بن على ويشى.

ولكنه لما توجه إليها لم يستطع الدخول إليها خوفا على نفسه من الإيقاع به، ونزل بالقصبة الجديدة إذ كان فيها عبيد المترجم وخاصته أدالة.

وفى يوم الخميس خامس عشرى صفر مد الودايا يد النهب والسلب فى الطرقات، ونهبوا ما كان بسوق الخميس من الماشية والدواب، أخذوا من البقر نحو الألفين، ومن البغال نحو سبعمائة، ومن الثياب عددا عديدا، وأغاروا على سرح أهل فاس وعاثوا فى ضواحيها والسبل الموصلة إليها، واتفق أن كان اليوم العنصرة، وفى اليوم نفسه شرع أهل فاس فى بناء أسوار المدينة التى تهدمت.

وفى يوم الأربعاء فاتح ربيع الأول قدم مسعود الروسى من مكناس لفاس والمدينة فى حصار، فزار الضريح الإدريسى وانصرف لداره بالعدوة، فسأله بعض القوم عن سبب مجيئه، فقال: إن السلطان مولاى عبد الله ولانى حكومة فاس، ولما شاع ذلك النبأ تحزبت الغوغاء والأخلاط وهجموا عليه وقتلوه أمام داره وجروه إلى توتة الصفارين، وهموا بتعليقه عليها فتعذر[1] حمله لضخامة جثته وبقى ملقى هناك إلى الغد هـ.

وفى نظرى أن ما جاء فى تاريخ الضعيف نقلا عن تاريخ ابن موسى أصح وأقعد، لأنه عاصر المترجم وحفظ ووعى وقيد على عهده ونقل كلامه الضعيف ولم يتعقبه.

(١) فى هامش المطبوع: «لا تعذر فى الضخامة مع التحزب المذكور».

وفى الدر المنتخب نقلا عن صاحب نشر المثانى: أن السلطان - يعنى المترجم - نادى بالوعيد الشديد لمن أتى بالميرة لفاس، وبقوا فى الحصار إلى مهل ربيع الأول، فأرسل السلطان القائد مسعود الروسى والياعلى فاس لما شاع عنهم أنهم إنما كرهوا محمد بن على المذكور، وأما غيره فهم راضون به أيا كان، ففرح عامة الناس بدخوله لخمود الفتنة، وإطفاء نارا الغلاء، فدخل الروسى دار أخيه بعدوة الأندلس من فاس، وجعل الناس يأتون للسلام عليه وكثر عليه الازدحام وهو داهش لا يدرى ما يحل به، ثم دخل عليه من جرى فى الفتن فقتلوا بعض أصحابه بين يديه، وخرج هو فارًا لدور بعض الأشراف محترما ومحتفيا.

فلما كان الليل اجتمعوا على قتله أخذا بثأر أخيهم بوده إذ كان قتله فى زمن ولايته لمولاى على، فأخرجوه من المحل الذى كان به وقتلوه، وأصبحوا على أشد ما يكون فى حصارهم، وغلا الزرع وكان به نحو ثمان موزونات للصاع النبوى، وقل الإدام، وانقطع اللحم واستمروا على حصارهم ومكث أهل فاس على نصر مولاى عبد الله والخطبة به على المنابر هـ.

وفيه أيضا نقلا عن صاحب النشر وغيره قائلا ما لفظه ومن كلامه الممزوج بكلام غيره: وفى عاشر ربيع الأول تولى عبد الخالق الزيتونى أمر فاس بإجماع أهلها، وجعل ينظر فى مصالح المسلمين من إصلاح الأسوار وغيرها، وفى السادس عشر قبض الودايا ثلاثة من أهل فاس وطوفوهم بفاس الجديد وقتلوهم، وقتل أهل فاس الهزاز، وابن حمو.

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الثانى اختلفت كلمة اللمطيين والأندلسيين فى ذكر السلطان مولاى عبد الله على المنبر فى الخطبة، فأراد الأندلسيون ذكره، وامتنع اللمطيون، وصليت الجمعة بذكره فى مسجد الأندلس والطالعة، وترك خطيب باب الجيسة ذكره، وكذلك نائب خطيب القرويين، لأن

خطيبها قاضى فاس كان بالحرم الإدريسى محترما، وأما خطيب المقام الإدريسى فإنه كنى عنه ولم يصرح، وإنما قال: وانصر اللهم من بايعناه على طاعتك من أبناء السادات الشرفا، سمى جده والد المصطفى.

وخاض الناس فى ذلك وكثر القيل والقال، واجتمع العلماء فى المقصورة فانفصلوا عن غير فائدة.

وفى السادس والعشرين اجتمعوا أيضا بمسجد اللبارين، فأما الفقيه سيدى محمد بن عبد السلام بنانى، فقال للعامة: أخرونى حتى أراجع المسألة وأراجع كتب الأئمة، وأما الفقيه السيد محمد الزيزى فقال لهم: طاعة السلطان واجبة، وإن تفاحش ظلمه فإنه متغلب ولا تقدرون على مقاومته، ومن قال لكم غير هذا فقد غشكم، وأنا لكم من الناصحين.

فهاجت العامة عليه، وهموا بقتله حتى تشفع فيه بعض الأشراف، وانفصل المجلس على ما ذكره بنانى ومن تبعه من التأجيل، ثم اشتد الغلاء فبلغ القمح عشرين مثقالا والشعير عشرة مثاقيل، وتحير الناس فى أمورهم، وأراد اللمطيون أن ينصروا سيدى محمد بن عريبة وامتنع الأندلسيون.

وفى مهل جمادى الأولى تذاكر الناس فى الصلح مع مولاى عبد الله على يد السيد أبى بكر بن محمد بن الخديم الدلائى، فلم يظهر لذلك أثر بعد أن كانوا نصروه على المنابر فى الخطب.

وفى ثانى جمادى الأولى جاء القائد محمد مغوس المجاطى بقصد الصلح، ثم إنه وقع خصام بينه وبين الودايا فجرحوه، وذهب لمكناسة وتوفى بها فى سابع الشهر المذكور.

وفى السابع عشر منه تناول أهل فاس صلحا مع السلطان على يد زيان بن على ويشى رئيس المحلة النازلة فلم يكمل، لأنه اشترط عليهم شروطا لم يقبلوها.

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين منه وقع خصام بين بعض البوابين بباب الجيسة مع خديم من خدام الشرفاء أهل دار القيطون فضربوه، فلما سمع بذلك أصحابه الشرفاء تحزبوا، وانضاف إليهم جماعة وجاءوا لاشبارات من ناحية سيدى اللزاز من ناحية الطالعة، فلما وصلوا للقصبة الجديدة وتلاقوا مع محمد بن على ويشى قائد مولاى عبد الله، قالوا له: نحن لا نوافق على ما فعله أهل فاس، وما خرجنا إلا لهذا الغرض، فأعرض عنهم، وحينئذ اجتمع اللمطيون والأندلسيون بعد صلاة العشاء بالقرويين وتحزبوا على عدم نصر مولاى عبد الله، وشد السلطان فى الحصار مدة من أربعة أشهر ولم يكن بين أهل فاس ومن حاصرهم قتال ولا رمى بكور ولا بمب ولا حفر مينة ولا طمع فى الاستيلاء على المدينة، لأن السلطان أوصاهم بعدم ذلك، وقال: إن ذلك لا يفيد فى فاس شيئا، وقد بالغت فى الحصار الأول الذى قبل هذا الجهد وما حصل لى منى ذلك إلا تضيع الأموال والمشقة، وإنما يذعن أهل فاس المساكين من أهلها والضعفاء الذين لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم شدة من الغلاء والجوع، هذا كله والسلطان بمكناسة يقتل من طغى من العبيد وتجبر هـ.

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرى وقيل الثامن من جمادى الأولى عام تسعة وأربعين، اجتمع رأى أهل فاس والودايا ومن شايعهم على رفض طاعة صاحب الترجمة والبيعة لصنوه أبى عبد الله ابن عريبة مار الترجمة، وقد كان الناس سئموا الفتن وإتلاف الأنفس والأموال وضيق المعيشة وقطع السابلة وكلوا وملوا.

وفى الاستقصا أن بيعته كانت فى خامس الشهر سنة خمسين. هـ.

ومن الغد الذى هو يوم الأربعاء أعلنوا بذلك ونادوا به فى الأزقة والأسواق وكتبوا البيعة لابن عريبة المذكور، ومن توقف أو خالف فى ذلك نكلوه، وإن كان موظفا عزلوه، وكان ممن أخر عن الوظيف لعدم إسراعه بالإجابة لما ذكر أبو عبد

الله محمد البكرى الدلائى وسجن وذعـر، وأبو عيسى المهدى الفاسى، وأبو مدين أحـمد الفـاسى، وأبو العـباس أحـمـد بوعنان، الأول منهم عن إمـامة الضـريح الإدريسى وولى مكانه أبو عـبد محمـد بن على بن إبراهيم، والثانى عن الإمـامة بمدرسة الطالعة وعين للإمامة بهـا بدلا عنه الشيخ التاودى بن سودة، والثالث عن الإمامة بجـامع الأندلس وولى مكانه السيد بوعـزة بن إدريس المشاط، والرابع عن إمامة جامع باب الجيسة وعين بدلا عنه أبو عبد محمد فتحا السلاوى.

ولما اتصل ذلك بالمترجم جـمع أهله وعياله وماله وكل مـا له قيمة بالـقصر الملكى بمكنـاس وأطلق سـراح من كـان بالسـجـون، وخـرج من مكناسـة ونزل بالحاجب، وقـيل بجبال فـازاز، والتفت عليه البـرابر وصاروا يغيـرون على سرح مكناسة وسايس وما والى ذلك.

ثم بعد ذلك بخمسة أيام أتى المترجم بالـبرابر أتباعه ليلا إلى مكناسة ونهب جميع أحوازها، ووصل إلى سيدى فرج وبقى هنالك إلى أن طلعت الشمس وفتح باب الأروى فدخلهـا وهدم البيوت وحرق المسـاكن، وأخذ جميع ما كـان بها من خيل وسلاح، ورجع للحاجب فاقتفى أثره جند صنوه ابن عريبة، ولما رأى المترجم ما لا قبل له به نجا بنفسـه وترك مخيمه غنيمة، فتبعـته جنود العبيد والودايا وأهل فاس إلى ملوية وتوغل فى جبالها وخفى عنهم ولم يدروا أين ذهب، وفى منقلبهم اعتـرضهم البربر وسلـبوهم من كل شىء، واشتـبكت الفتن وارتبكت، وفى هذه الفتن كانت منية المولى الرشيد صنو المترجم، والقائد ابن النوينى.

وفى نسخة عتيقة من نشر المثانى غير مطبوع ما نصه: إن عبيد مكناسة تبعوا المترجم للفـتك به فلما نزلوا على عين اللوح أنزل الله المطر الكثـير وأرياحا وبردا شديدا حتى كادوا أن يهلكوا، فرجعوا وقد خاب قصدهم.

وفى شوال أكثر أتبـاع مولاى عبد الله من البرابر الغارة عـلى سايس وغيره من البلاد الموالية لبلاد البـربر، ففر جميع من كان يلى البـربر، فخلت جميع تلك البلاد، ثم شن البرابـر الغارات على من يمر بالطرقات، وأكثـروا النهب فى سائر البلاد التى يقدرون على الوصـول إليها، وقاموا بدعوة مولاى عـبد الله فى جميع جبالهم واتخذهم بطانة له، وفى ذلك الوقت بدأ انتـعاشهم، ولما رأى مولاى عبد الله فرار الناس من البربر نزل جبل غمره الموالى لبلاد سايس، وانقطعت الميرة على فاس الإدريسية مـن كل ناحية من غارات البربر على ما حـولها، وحبس الله المطر عنها وعن حوزها فارتفعت الأسعار.

وفى رابع عشرى رمضان أقيمت صلاة الاستسقاء ببوعجول، وخطب مولاى حمدون الشريف الطاهرى نائبا عن القاضى سيدى يعيش.

وفى الثامن والعشـرين من ذى القعدة أقيـمت صلاة الاستسقـاء أيضا بباب الفتوح، وخطب الفقيه السيد أحمد الورزيـزى، ثم أقيمت بباب الجيسة، وخطيبها سيدى حمدون الشريف الطاهرى.

وبالغد أقيمت صلاة الاستسقاء أيضـا بباب الفتوح، وخطب سيدى حمدون المذكور.

وفى الثلاثين صليت بباب الفتوح، وخطيبها الشريف المذكور.

وفى مهل ذى الحجة أقيـمت صلاة الاستسقاء أيضا، وخطيبهـا السيد أحمد الورزيزى المذكور.

وبالغد أقيمت صلاة الاستسقـاء بوادى الزيتون، وخطيبها سيدى بومدين بن سيدى أحمد الفاسى.

وبالغد أقيمت بباب الجيسة، وخطيبها السيد أحمد الورزيزى.

وفى خامس ذى الحجة أقيمت بمصلى بباب الفتوح، وخطب الورزيزى أيضا ولم ينزل المطر، وحينئذ اختل النظام وشاع الفساد وحصلت المجاعة العظيمة، ومات بالجوع من لا يحصى، وقل الإدام وانقطع اللحم.

ولم يزل الأمر فى شدة، وازدادت الفتن وفر الناس، فعند ذلك أتى القائد العباس بورمانة أكبر رؤساء جيش أبى عبد الله بن عريبة صنو المترجم وقال له: إن البربر عثوا، ولم يبق التفات للأمير، فخرج فى خيله ورجله ووقع قتال شديد بين جنود ابن عريبة والمترجم وأحزابه البربرية بسايس من الزوال إلى الاصفرار انجلى بهزيمة بورمانة وجموعه، وتركوا جميع مقوماتهم واستعداداتهم غنيمة، ولو أن الظلام حال بينهم وبين جنود المترجم لاستأصلوهم قتلا وأثخنوهم جرحا.

وقام عدة ثوار كل يدعو لنفسه ويحاول جر النار لقرصه والاستيلاء على ما بيد غيره، استولى الحوات على عبيد الرمل وبنى مالك وسفيان والطليق والخلط وما والى ذلك، واستولى الباشا أحمد الريفى على الفحص، وبلاد غمارة، وطنجة، والقصر وما حول ذلك من المعاقل وعلى بلاد الريف وجبالها وقلاعها إلى ناحية كرسيف، واستولى القائد القلعى على بنى يازغة وما والاها.

أما المترجم فقد كان تحت سلطنته الصحراء، وسوس، ومراكش، والبربر، وقد نص التاريخ على أن هذه الفتن لم تكن فى هذه السنة بالمغرب فقط بل عمت سائر أقطار العالم.

ولما طال مقام صاحب الترجمة بين أظهر البربر ينتقل من أغوارها إلى النجود، والفتن قائمة على ساق، والقحط ضارب أطنابه، سار لتافيلالت وصار يترقب ما تنجلى به تلك الغياهب.

وفى رجب عام خمسين ومائة وألف: بلغ ثمن وسق القمح مائة مثقال، قال ابن إبراهيم الدكالى فى تقاييده: بعد أن كان فى الرخاء بخمسين أوقية والشعير

يقاربه، وكذلك الذرة حتى كاد أن ينقطع الطعام من فاس، وكان وزن الخبزة التى تباع بالسوق بموزونة خمس أواقى بالبقالى، وافتضح وجوه الناس وأعيانهم، وخلت المدينة وسدت حومات متعددة، مثل حومة الكدان، ودرب اللمطى، وحومة الأقواس، والبليدة، والطالعة، والدوح، وسدت الأسواق إلا القليل، وهدمت الديار وبيعت، ومات من الناس ما لا يعلمه إلا الله، حتى ذكر بعض الناس ممن أثق به أنه وصل للمارستان من الموتى فى رجب وشعبان ورمضان نحو الثمانين ألفا، فضلا عمن لم يصل إليه وكانت الدار التى قيمتها عشرة (كذا) مائة مثقال تباع بثمانين مثقالا وسبعين ولا تبلغ المائة، وانجلى كثير من الناس عن المدينة وذهبوا إلى القصر، وتطاوين.

وممن ذهب بعياله لتطاوين العلامة سيدى محمد بن عبد السلام بنانى شارح الاكتفاء، واندثرت بسبب ذلك قبائل كثيرة من أهل فاس، ولولا أن النصارى أتوا بالزرع من بلادهم لتطاوين ونواحيها وجلبه أهل فاس لهلك الكل جوعا، وقد كان والى تلك البلاد أحمد بن عبد الله الريفى ذا إبل عديدة اكتراها منه أهل فاس لحمل ما اكتالوه من الميرة، قيل: إنه ساعدهم على الكراء ظاهرا، ومنع الحمالين من الحمل باطنا، وتمرد عليهم ستة أشهر حتى تحقق لديه أن أكثر العائلات الكبيرة الذين لا يقدرون على التنقل لبلد آخر من قلة الزاد وكثرة أفراد العائلة ماتوا جوعا فسر بذلك باطنا، وساعدهم ظاهرا، ووصل الزرع لفاس، وانجلت الأزمة التى حصت منهم كل شىء، ولما أتى ركب الحجاج من طرابلس أتى معه بالقمح الكثير وانحط السعر ورحم الله عباده.

قال ابن إبراهيم فى تقاييده لدى تعرضه لهذه الأحداث ما لفظه: كان اللصوص يأتون ليلا لديار الناس ينهبونها ومن قام معهم يقتلونه ويأخذون جميع ما وجدوه، فكانوا يأتون لرأس الجنان والمخفية ومصمودة والطالعة والدوح وسوق

النخالين وبـاب السلسلة، وقد جاءوا مـرة إلى سوق قيـسارية البـز وحصل للناس بسبب ذلك خوف عظيم، وهذا كله والسلطان بمكناس يعـنى ولد عريبة لم يلتفت للناس ولم يعبأ بما نزل بهم، وحيل بين الناس وبين اجتنهم بلمطة والمرج وغيرهما من أحـواز المدينة، ولـم يبق أحـد يذهب لموضـعـه بالمـرج إلا من اتخـذ يدًا مع السياب.

وجاء لصوص من ناحية باب الفـتوح للفندق الذى يقرب من مدرسة الوادى وأخذ منه قافلة كانت عـزمت على السفر، فلما اجتمع أهل فـاس وخرجوا إليهم وجدوهم قد ذهبوا بما أخذوه وذلك فى وسط النهار.

وفى هذه الأيام أغار الودايا على القصارين بوادى فاس ونهبوا ما عندهم من الثياب، ثم صـار القصارون يخدمون الثـياب بوادى مصمودة، فـأخذها اللصوص أيضا، وكثـر الخوف بسبب ذلك، وصار الناس يبيـتون فى الشوارع التى هى مظنة مجىء اللصوص ليلا والأمر فى كل نفس يزيد اشتدادًا.

وفى خامس عشـر شعبان ذهب السيـاب إلى مدرسة الصفارين ليـلا ونهبوا جميع ما كـان بها، لأنها كانت خلت من أهلها وغلقت أبوابها وافتـضحوا، وقام معهم الناس وقتلوا منهم السلاسى ببـاب المدرسة وباقى أصحابه هربوا، ومن الغد قتل بالموضع نفسه بورمضان الحيانى وتسعة من أصحابه بالموضع المذكور، وفى هذه الأيام جاءت قافلـة من الغنم ونزلت بفندق التجارة قرب القـرويين لعدم الأمن من غيره.

وفى سابع رمضان ضرب الأندلسيون المحتسـب السيد محمد بن عبد السلام المحمودى بحومة البليدة قرب دار القائد السيد عبد المجيد بوطالب، ووقعت بسبب ذلك فتنـة بين الأندلسييـن واللمطيين ثم اصطلحـوا ليلا بروضـة مولانا إدريس، ووقع اتفاقهم على تقـديم التاجلوتى على الأندلسيين، والحاج مـحمد برزوز على

اللمطيين، وأحمـد الغرناطى على أهل العدوة، والسيد عبـد المجيد بوطالب يكون الحاكم على الجميع ورضى الكل بذلك.

وفى ليلة الأحد الخامس من شـوال جاء السياب لسوق قيسـارية البز ونهبوا منها بعض الحوانيت.

وفى سادس شوال قـتل سيدى محـمد بن عبد الرحـمن بن القاضى بجنانه المسمى باللب، قتله القطاع رحمه الله.

وفى ليلة الحادى عشـر منه جاء السياب لدار الغزوانى الهزاز بشـارع سويقة الذياب ونهبوها.

وفى ليلة الثانى عشر منه جاء السياب أيضا لدرب جنيارة ودخلوا على الحاج محمد برزوز بدار هنالك كان بها مع جماعة من أصحابه، فضربوه برصاصة ومات من الغد، وجرح من أصحابه مولاى أحـمد بن إدريس العراقى، والشريف سيدى محـمد بن المهدى بوطالب، وأحمـد بن جلون، والتاودى ابن عبـد الخالق بنانى، والحاج محمد عديل.

ومن الغد اجتمع أولاد برزوز وقـتلوا محمد بن العربى الجزولى كبـير حومة البليدة، لاتهامهم له بأنه هو الذى أدخل السياب على عمهم الحاج محمد.

وفى أواسط شعبان ذبح يحيى الشاوى ليلا وألقى بالبرادعيين.

وفى مهل ذى القعدة ذبح المحتسب سيدى مـحمد بن عبد السلام المحمودى قرب درب رطوانه، كان ذاهبا لداره بسيدى أحمد الشاوى ولم يدر من قتله.

ومن الغد وقعت بسبب ذلك فتنة بين الأندلسيين واللمطيين ثم اصطلحوا.

وفى التاسع والعشرين من ذى الحجـة جاء السياب لدار الراعى قرب ضريح سيدى محمـد بن عباد، وأخذوا منها غنما وبقرا كثيرا، وضـربوا الحاج محمد بن

عبد السلام قصارة برصاصة فمات من حينه هـ بنقل صاحب الدر المنتخب المستحسن.

وفى ترجمة أبى عبد الله محمد بوطالب من نشر المثانى أنه لما نزلت بالناس مسغبة عام خمسين، احترف رؤساء الرماة ببيع الزرع من البادية يمنعون المساكين من شرائه ويشترونه بما شاءوا، ويبخسون الناس أشياءهم، وإذا باعوا يبيعونه بما شاءوا، وكان من جملتهم رجل يقال له العمارى رئيس الرميلة والكدان والصفاح من بنى عمار أحد شعوب سكان زرهون ورد على فاس جده، فكان يسرح البقر حتى يحفى، فاشترى بقراً لنفسه وكان يبيع الحليب بحانوت بالصفاح، وسكن بالكدان، ثم بعد ذلك اشترى الدار الأولى عن يمين الداخل لدرب خلوق، وكان يبيع اللبن، ثم ولده كذلك، إلى أن نزلت مسغبة عام خمسين، وترأس على أهل الكدان وجدبت البلاد ومات البقر ولم يبق حليب يباع، صار يبيع الزرع بسوق الكدان بالصفاح.

فاضطر مولاى على بن مولاى محمد بوطالب صاحب الترجمة إلى شراء ما يتقوت به، فقصد سوق الصفاح فجلس ينتظر ما يشترى، فإذا بتليس جاء من البادية فاشتراه العمارى بما شاء، ولم يقدر أحد من المساكين يشتريه بما ساومه به العمارى ولا يعطيه فيه السوم، فباعه للعمارى بما شاء بمدهم الذى أحدثوه.

ثم أتى تليس آخر من البادية فساومه للعمارى أيضا وأعطى فيه السوم فزاد عليه مولاى على الثالث وباعه له مالكه فأراد العمارى منعه من شرائه، فلم يتركه له مولاى على، فتسابا بينهما وتصارعا، فصرعه مولاى على فدخل العمارى إلى حانوته وأخذ كابوسا كان عنده مرصصا وخرجه فى مولاى على من خلفه وهو لا يشعر فخر ميتا فحمله بعض المومنين إلى داره، فقالت لهم أمه: لا ندفنه حتى نقتل قاتل ابنى، فقالوا لها: قتلناه فدفنوه من يومه فى روضة أبى غالب على.

ثم فى غـده حمل السـلاح الشرفـاء الأدارسـة وغيـرهم وساروا إلى قـتل العمارى وأهل الـرميلة والصفاح والكدان الذين تعـرضوا عليه ونصروه، فـاقتتلوا وسلم الله الشرفاء من الجرح والقتل، وقتل العمارى وعدة من أنصاره، ثم افترقوا وكفوا، وهـدنت الفتنة والمدينة، ثم سلط الله على أهل الرميلة والصـفاح والكدان السارق بوزيان العـبادى من أولاد عـباد صفـرو، ومعه جـماعة من سـراق إخوته والمزاوغة وبنى يازغة، فكان يأوى لحوز فاس ليـلا ويدخل الديار وينهبهم، فخلت بذلك الحـومات الثلاث المذكـورة ولم يبق منهم إلا القليل، ورجـعت تلك الديار بساتين وجنات.

ولم تزل نيـران الفتن والأهوال فى تـوقد، وأمـر ابن عـريبـة فى اخـتـلال وانحلال، والدماء تراق، والأموال تؤكل بالباطل، والفوضى ضاربة أطنابها، ونفد ما فى بيـوت الأموال، وسـدت أبواب الجبايات، وتعـذرت المصالح العـامة، ولم يوجد ما تدفع منه رواتب الجند وانقطعت عن الرؤساء وأولى العصبة مادة ما كانوا يستفيدونه من بيوت الأموال، والأمر فى كل يـوم يزداد شدة، فاتفقت كلمة العبيد مع رئيسهم الحوات والبعض من الودايا والبربر على خلع ابن عريبة.

وفى صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعـشرين وقيل الرابع والعشرين من صفر العام أخـرجوا ذلك من القـول إلى الفعل، فـأعلنوا بخلعـه، ولم يقتصـروا على الخلع، بل ألقوا عليـه القبض وعقلوه بداره الواقـعة على ضفـة وادى يسلن جوار حمرية الـتى لازالت معروفة إلى الآن خارج الـعاصمة المكناسيـة، والهرج والمرج والخلاف فى ازدياد، فـرأى آيت عياش أن لا مخلص من ذلك إلا الرجـوع لطاعة المترجم واستئناف البيعة له، فذهبوا إليه لتافيلالت مقر سلفه فشرحوا إليه جميع ما حل بالرعية من الأحداث، وما أوصلهـا التنازع إليه من الفشل وذهاب الريح، وما آل إليه أمر صنوه ابن عريبة والمنازعين له من إخوته، وألحوا عليه فى القدوم معهم

للقيام بنصرته، فقابل مطلبهم بالرفض قائلا: لا غرض لكم إلا أن تجعلونى طريقا موصلة لإذاية المسلمين، والتوصل لأكل أموال العجزة والمستضعفين بالباطل وردهم بخفى حنين.

ثم بعد ذلك بدا للمترجم الرجوع إلى المغرب، فنهض من تافيلالت وسار إلى أن بلغ تادلا ثم آيت عتاب، فاجتمت عليه قبائل تلك الناحية وهادوه واستبشروا بطلعته، وبقى هناك يستطلع أخبار فاس ومكناس وما والاهما، ويبحث عن أحوال إخوته مع العبيد إلى أن تحقق لديه اجتماع الكلمة عليه.

واستؤنفت إليه البيعة فعلا على يد القائد بوعزة مولى الشربيل، وذلك يوم الاثنين الخامس عشر من ذى القعدة عام اثنين وخمسين على الأصح، وقيل يوم الجمعة، وهو يومئذ ببلاد السراغنة، ولما تم له الأمر وجه للمترجم فئة عظيمة من أعيان العبيد لإعلامه باستئناف البيعة له، ولما لحقوا به أنزلهم منزلة تجلة وإكرام، وأقاموا معه ببلاد السراغنة أياما، ثم أنهضهم لناحية سيدى رحال مع الباشا الزيانى ومكثوا ثمة بضعة أيام، ثم أصدر أوامره بحصار اكدير فأجابوا بالسمع والطاعة وصارت تفد عليه الوفود من سائر الأصقاع المغربية يطلبون عفوه وأمانه، فأمن الجميع وقابل بالعفو والإحسان.

وفى حادى عشر ذى الحجة منصرم العام أمر رؤساء العبيد أشراف فاس وعلماءها وأعيانها بالتوجه لتقديم الطاعة لصاحب الترجمة، فأجمعوا أمرهم من فاس أول عام ثلاثة وخمسين، ينتظم ذلك الوفد من القاضى أبى العباس أحمد بن على الشعراوى، والعلامة أبى عبد الله محمد الزيزى، وأبى حفص عمر بن إدريس الإدريسى، وصنوه المولى أحمد وابن عمهما أبى عبد الله محمد بن عبد الله المدعو الغالى، ونحو الأربعين من الرماة والأعيان فى طليعتهم شيخ ركب الحاج وهو الخياط عديل ورؤساء العبيد والودايا.

وصاروا يظعنون ويقيمون إلى أن وصلوا للحضرة السلطانية، فأنزلهم منزلة تجلة وإكرام، ثم أحضرهم لديه ووجه اللوم على ما صدر منهم على الفقهاء، فاعتذر الكل بأنهم مرغمون على ذلك ممن لهم السلطة الاستبدادية من عبيد ووداية، فقال لهم ما قاله الصديق نبى الله لإخوته: لا تثريب عليكم فيما جنيتم، وعين عبد الله الحمرى عاملا على فاس، ورد الجميع ردًا جميلا.

ثم استقدم العبيد بأجمعهم لحضرته، ولما قدموا عليه جمع جيوشا عديدة من القبائل الحوزية، ثم عقد الرياسة على الجميع للقائد الباشا الزيانى، ووصل الجميع وأوصى بالعدل والإحسان والبر والتقوى، ووجههم لحصار آكدير إلى أن يدخل أهله فيما دخلت فيه الجماعة فساروا إلى أن وصلوا لسيدى رحال إلى أن لحق آخرهم بأولهم، ثم نهضوا يطوون المراحل إلى أن خيموا على حصن آكدير، ولم يزالوا محاصرين له إلى أن فتحوه عنوة فى سابع ربيع الثانى من العام واستولوا على جميع ما كان به.

وفى عاشر ربيع المذكور، وقعت ملحمة عظيمة بين الجيوش السلطانية والقبائل الحوزية مراكش ودكالة والرحامنة وزمران ومن انضاف إليهم من الأعراب والبرابر، كان الظفر أولا للجيش السلطانى ولكنهم أضاعوا الأخذ بالحزم ونبذوا الاحتياطات اللازمة وراءهم ظهريا، واشتغلوا بالنزاع على الغنيمة، حتى أتاهم من خلفهم المولى المنتصر بنور الله شقيق المستضىء بنور الله وحال بينهم وبين الأثقال والأخبية، وحاز الكل غنيمة باردة ورجع من حيث أتى.

أما الجيش السلطانى فإن منه من لحق بصاحب الترجمة، ومنهم من بقى بآكدير حتى يصدر إليه الأمر العالى بما يكون عليه عملهم، وقد كان من بقى من عبيد مشرع الرمل بمحل استيطانه من المشرع المذكور أنهضوا منهم جيشا ثانيا رأسه الباشا بوعزة مولى الشربيل، وتوجه للحضرة السلطانية ليكون ردفا للأول، وسار

إلى أن بلغ لبلاد تامسنا وأقام هنالك حتى تلاحق المتأخر بالمتقدم، ثم نهضوا وساروا إلى أن خيموا بتساوت، وأقاموا هنالك إلى أن لحق بهم المترجم فى فاتح ربيع الثانى فى جنود جرارة، واطمأن بعضهم لبعض، ونشطوا للقتال، واستعدوا للنزال، أخذًا بثأر إخوتهم.

ثم نهض بهم المترجم إلى ناحية وادى تانسيفت، فوجد صنوه أبا النصر قد حال بجنوده الحوزية بينه وبين الماء، ولما التقى الجمعان ببوكر كور وتسعرت نيران القتال وحمى الوطيس تقدم الباشا بوعزة المذكور وقد كان على الميمنة للطعن والنزال، واقتفى أثره ابن النوينى وقد كان على الميسرة، ثم تبعهما صاحب الترجمة، وكان القلب والساقة، وكان انجلاء الملحمة بانهزام أبى النصر وأحزابه شر هزيمة، وذلك يوم الخميس فاتح جمادى الأولى من العام، ثم نزل المترجم على الماء واقتفى الباشا بوعزة أثر المنهزمين، إلى أن نزل على رأس العين، ومن الغد رجع إلى المحال السلطانية، وأقام المترجم بزاوية ابن ساسى نحو سبعة عشر يوما.

وفى يوم الأربعاء متم جمادى الأولى من العام كانت وقعة كبيرة بـ(منزات) حضرها صنو المترجم المستضىء بنور الله بنفسه، وكانت الكرة عليه، فاعتصم هو وشيعته بجبال مسفيوة، ولولا ذلك لداستهم حوافر الجنود السلطانية، ولما أيقن المترجم بفشلهم وذهاب ريحهم أقلع عنهم وتوجه إلى دكالة فحصت جنوده منها كل شىء وأقام بها نحوًا من شهر.

وفى آخر جمادى الثانية أقلع عنهم ووجهته مكناسة الزيتون مقر عرش والده، وكان وصوله إليها فى منتصف رجب العام، وخيم بباب الريح خارج البلد، ولم يزل مخيما هنالك والوفود تفد عليه بالهدايا والبيعات من سائر الأقطار المغربية من عرب وبربر، وهو يقابل كلا بما يليق ويصله على قدر حيثيته ومكانته،

وكم قضى لخاصتهم والعامة من مآرب ومطالب ووالى من إحسان إلى أن رجع الكل لوطنه لاهجا مثنيا شاكرا.

قال أبو عبد الله الضعيف: إلى هنا انتهى تأليف الفقيه المؤرخ الحاج عبد الكريم بن موسى الريفى الذى سماه بزهر الأكم، قال رحمه الله: وهنا انتهى بنا هذا التأليف، وقد قيل فى بعض الكلام، من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام، والبقاء والدوام، للملك العلام هـ.

ولم يتخلف أحد عن البيعة وتقديم الطاعة غير زعيم الريف الباشا أحمد بن على ومن هو تحت سيطرته لتمرده وشقه عصا الطاعة.

وكان سبب عدم دخول المترجم لدار الملك ما كان صدر من أخيه المستضىء من التزوج ببعض نسائه، ولذلك ألقى القبض على قاضى البلد أبى القاسم بن سعيد العميرى، والقاضى أبى العباس أحمد بن على الشدادى، والعلامة أبى الفضل العباس بن الحسن بن رحال المعدانى، وأبى العباس أحمد بن عبد الله التملى، وأبى الحسن على الندرومى خليفة القاضى العميرى المذكور، وأغلظ لهم فى القول وقرع ووبخ على موافقتهم لأخيه المستضىء على التزوج بزوجاته، وكان ذلك فى يوم الخميس حادى عشرى رجب المذكور، وعزل الخطباء الذين كانوا يخطبون باسم أخيه المستضىء.

ثم بنى دويرة لسكناه بباب الريح، ولما تم العمل فيها سكنها بمن كان معه من الحرم، ووظف على أهل البلد وظائف أثقلت كواهلهم، ولما بلغت زروعهم أوان الحصاد أطلق أيدى الجيوش فيها، ولما ضاق بهم الخناق وبلغ بهم الجهد منتهاه عفا عنهم وأحلم وصفح فاطمأنت النفوس، وزال عنهم ما كانوا فيه من شدة

وبوس، وأنجح الله لهم الأسباب وصلح الزرع والضرع وتوالت الأمطار، وانحطت الأسعار، وتبدل عسرهم يسرا.

وفى أوائل المحرم فاتح عـام أربعة وخمسين نزل بفاس، وولى عليـها الحاج عبـد الخالق عـديل شيخ ركب الحـاج، وأمره بتـأخيـر كل خطيب خطب بصنوه المستضىء، وكان عديل المذكور ذا ثبـات ورسوخ عقل فقال له: يا مولاى هذا من وظيف القاضى، وحـسبى شد عضـده فيه، فـولى قضاء فاس أبا يعـقوب يوسف بوعنان وأمره بما أمر به عديل فعزل السيد بوعزة المشاط عن خطبة مسجد الأندلس وولى مكانه الفقيه أبا عـبد الله محمد الزيزى، وعزل أبا حفص عـمر بن عبد الله الفاسى عن خطبـة باب الجيسة وولى مكانه أبا عـبد الله محمـد السلوى، والشيخ التاودى بن سودة عن خطبة مدرسة الطالعـة وولى مكانه أبا العباس أحمد الحارثى الدلائى، وأبا الحسن على التوزانى عن خطبـة جامع القصبة البالـية بباب المحروق وولى مكانه أبا العباس الشامى.

وولى قضاء تازا الفقيه أبا محمد عبد الواحد بوعنان، وأمره بعزل من هنالك من الخطبـاء للسبب المذكـور، ولما كان فى أثناء الطريق لمحل مـأموريتـه اعتـرضه اللصوص وسلبوه من كل ما كان معه، وتوفى بعـد وصوله لتازا قبل قضاء ما أمر به.

وفى صبيحة يوم الثلاثاء تاسع عـشرى محرم أتى اللصوص لفندق النخالين من فاس ونهبوه.

وفى أواخر صفر جاءوا لسوق البز ونهبوا منه دكانين.

وفى العام سلط الله الفار على الزرع والقطانى والبحائر والفواكه الخريفية فى سائر البلاد.

وفى العام نفسه اختط المترجم دار الدبيبغ الشهيرة بضواحى فاس، وفيه بعث القائد محمد الكعيدى اليازغى كبير أهل الديوان لجباية الأموال المترتبة بذمم الحياينة وغيرهم، فقتله الحياينة مع من كان معه من الأصحاب بالموضع المعروف بعين مديونة، وذلك فى ثانى عشرى ذى الحجة منصرم العام.

وفى اليوم نفسه اتصل بالمترجم وهو يومئذ بفاس خروج الباشا أحمد بن على الريفى من طنجة ووجهته القصر الكبير فى استعداد زائد، فأنهض لمقاومته وصده عن القصر جيشا جرارًا من عبيد الرمل وذهب هو للعاصمة المكناسية، فخان القواد ومن فى قلبه مرض ولحقوا بالريفى المذكور ورجع الباقون إلى مكناس وانحل الأمر، ولما نزل القواد الخائنون ومن فى حكمهم إلى الريفى، أكرم مثواهم ونزلهم ووصلهم واقترح عليهم الكتب لإخوانهم الذين بمشرع الرمل بالقدوم عليهم لديه، ونكث بيعة صاحب الترجمة، ووعدهم على ذلك بمال جزيل.

واتفق أن كان ذلك غب زمن المسغبة، فأسعفوا رغبته، ووجهوا لإخوانهم يستقدمونهم، فوجدوهم ارتحلوا لمكناسة لما لحقهم من عيث جيرانهم سفيان وبنى مالك وبنى حسن والبربر، ولما حلوا بمكناسة تطاولوا على أهلها وضيقوا بهم أشد التضييق، واستباحوا الأموال والأعراض، ونزعوا عن وجوههم جلباب الحياء، حتى انجلى عن البلاد كثير من أهلها وتفرقوا فى البلاد، ولم يقتصر العبيد على أذى أهل المدينة بل مدوا يد الطغيان والظلم والتعدى فى ما جاورها وعثوا فى السابلة، ولما اشتعلت نيران الفتن وعجز المترجم عن رتق ما انفتق، جمع عياله وماله ووجه بذلك لفاس، وكان وصوله إليها ضحى يوم الخميس الموفى ثلاثين من ربيع الأول على الأصح، واجتمع رأى أهل النقض والإبرام على خلع المترجم لعجزه عن الدفاع، والمبايعة لصنوه زين العابدين سابق الترجمة، وقد كان عند الباشا أحمد الريفى.

ولما اتصل هذا النبـأ بالريفى المذكور وكـان من أشد الناس عـداوة لصاحب الترجـمة، بادر للإعـلان بنصر زين العـابدين وتبعـه على ذلك من كان مـعه من العبيـد، وطيروا الكتب لإخوانهم الذين بمكناس بتـعجيل رفض بيعـة المترجم من أعناقهم، والبيعة لصنوه المذكور.

ولما وصلت إليهم تلك الـرسائل ارتأوا أنه لا يتم لهم أمر إلا بموافـقة الودايا وأهل فاس معهم على ذلك، فكتبوا لهم بشرح ما أصاب الناس من الضيق والحرج بتراكم الأهوال والفتن، ورغبوا منهم الدخول معهم فيما راموه وأبرموه، فأجابوهم برفض ذلك المطلب وإلغـائه محتـجين بأن بيعـة المترجم فى أعناقـهم لا يبيح لهم الشرع خلع ربقتها.

وفى ثانى ربيع الثانى خيم المترجم بدار الدبيغ الشـهيرة خارج فاس، حيث المدينة الجديدة الـيوم، فاسـتقبله الودايا وأهل فـاس وشرح لهم مـا تحقق لديه مما أضمره العبيد له فأجابوه بأنه لا سبيل لرفض بيعته، وأن طاعته لازمة لهم.

ثم انتصر حـزب العبيد وأعلنوا بخلع صـاحب الترجمة والبـيعة لصنوه زين العابدين، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشرى ربيع، فكانت دولة المترجم فى هذه المرة من اليوم الذى بويع فيه وهو الخامس عشر مـن ذى القعدة عام اثنين وخمسين إلى اليوم الذى خلع فيه وهو الأربعاء تاسع عشـرى ربيع من عام أربع وخمسين، عاما واحدا وأربعة عشر يوما وهى الدولة الثالثة له.

وفى ثالث عشر رمضان عام أربعة وخمسين ومائة وألف، أعلن العبيد بخلع زين العابدين مار الترجـمة، واستئناف البيعة لصنوه المترجم، وهو يومـئذ بالقبائل البربرية، وبويع له بالعاصمة المكناسية بمحضـر الشرفاء والعبيد والأعيان، وتمت له

البيعة العامة حيث إن البربر والودايا وأهل فاس والعرب كانوا لازالوا متمسكين ببيعته ببواطنهم، وإن اضطرهم العبيد على التظاهر بالطاعة لزين العابدين.

ولما اتصل هذا النبأ بالمترجم قدم لمكناس، ووفد عليه أربعمائة من العبيد يطلبون عفوه وأمانه فأمنهم وقابل جنايتهم بالصفح، واستقر بمكناس أياما، ثم بدا له النهوض لفاس، ولما نزل بداره المعروفة خارج المدينة بدار الدبيبغ خرج لاستقباله الأشراف والوجهاء وذوو المناصب العالية فرحين مستبشرين، وتسابقت الفرسان على الصافنات الجياد أمامه إظهارًا لما خامرهم من السرور، وسدت الأسواق.

ثم صارت الوفود تفد على جلالته لتقديم الطاعة وإظهار الخضوع، فأوسعهم برا وحلما، ونقل من دار أبيه لداره المذكورة كل ما له قيمة من ذخائر وأثاث، فكبر ذلك على العبيد، ولم يرضوه وطلبوا منه الرجوع عن ذلك، وأن لا يتمادى على إكمال بناء تلك الدار لتيقنهم أنه إن تم بناؤها وسكن بها اعصوصب عليهم، وخرج من ربقة استبدادهم، فلم يلتفت إليهم، فهددوه بالخروج عليه، فلم يرفع لهم رأسا.

ولما علم بذلك الباشا أحمد الريفى اتخذه فرصة، وكتب لعبيد مكناس قائلا: إن الأمر صار لغيركم ولم يبق لكم أمان على أنفسكم، وإن المترجم لم يبق تحت يده مال، والملك لا يقوم إلا بالمال، فقوموا على ساق فى خلعه وتبديد جموعه وأحزابه، ولكم من المال ما تحتاجون إليه، وها صنوه المستضىء بمراكش وقد بايعه أهلها فاتبعوهم، وأعلنوا بنصره، فأجمعوا أمرهم على ذلك وفعلوا، فوجهوا للمستضىء يستقدمونه.

وفى ذى القعدة بلغ المترجم ما صمم عليه العبيد مما أوعز لهم به الريفى، فاشتغل بتأليف القبائل المتمسكة بطاعته وحالفهم على المدافعة عنه ومحاربة أضداده والموت دونه، وإثر ذلك ورد على فاس من مراكش الحاج أحمد السوسى داعية المستضىء ينشر دعوته ويرجف الناس ويعظم شوكته، فأصدر صاحب الترجمة أمره بقتله قصاصًا، فقتل واستصفيت أمواله، واستؤصل ما كان بداره.

وفى أول المحرم عام خمسة وخمسين دخل المستضىء مكناسة فى عساكره العبيد، وبأثر ذلك ورد كتاب الريفى المذكور على أهل فاس يدعوهم لبيعة المستضىء، فأجابوه بالرفض وصمموا على نصرة المترجم ومقاومة كل من ناوأه والموت دونه، وتعاهدوا بإصلاح المعاقل والصقائل، وجعلوا لباب محروق أحد أبواب المدينة أبوابا من ساج مغشاة بالحديد.

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرى ربيع الأول خيم المستضىء بجند العبيد بظهر الزاوية، وفر المترجم للقبائل للانتصار بهم، ونزل على آيت يدراسن، ولما كان الغد الذى هو يوم الأربعاء وقع قتال شديد بين المستضىء وأهل فاس ومن انضم إليهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع، مات فى المعركة من الودايا نحو اثنى عشر رجلا، ومن أهل فاس نحو الستة، ومن العبيد نحو الستين.

وفى يوم الجمعة رابع ربيع الثانى رجع السلطان عبد الله صاحب الترجمة فى جيوش جرارة ذات قوة وبأس شديد من البرابر بنى مطير وجروان وآيت يوسى وأيت أدراسن وزمور وآيت ومالو وغيرهم، وجلب بهم على أحزاب صنوه المستضىء، ولما اتقى الجمعان علم المستضىء أنه لا قبل له بمقاومة تلك الجنود البربرية المجندة، فنجا هو وأتباعه بأنفسهم بعد عشاء يوم السبت خامس ربيع الثانى، وعصم الله بمحض فضله دماء المسلمين.

وفى العام عم الطاعون بالمغرب وخصوصا بفاس ومكناس ونواحيهما وانحبست الأمطار، وارتفعت الأسعار، وفشا الجوع فى القرى والأمصار، وتفرق أهل فاس فى البلاد كالقصر ووزان والعرائش وتطاوين وطنجة. قال أبو عبد الله الضعيف: حكى لى من أثق به من أهل القصر أن صبيان أهل فاس كانوا يتكففون بأبواب الدور والأزقة.

وفى جمادى الأخيرة وقعت فتنة بين الحاج عبد الخالق عديل، وأبى عبد الله محمد الغالى الشريف الإدريسى، فرفع عديل الشكاية بالشريف لصاحب الترجمة فأصدر الأمر بإلقاء القبض عليه، ففر واستجار بضريح جده أبى العلاء إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر، فضيق عليه إلى أن خرج وضرب ووبخ وسجن وقتل أنصاره لسعيهم فى الأرض الفساد.

وفى يوم الخميس سابع عشرى رجب سرح المترجم أبا عبد الله محمد الغالى الشريف الإدريسى، ولما علم بذلك أهل فاس تحزبوا وخرجوا لباب محروق بقصد قتل الشريف المذكور إن رام النزول لفاس القرويين، فأوعز بعض الناس بذلك للإدريسى المذكور فسكن فاسا الجديد.

وفى العام وجه المترجم مع ركب الحاج ثلاثة وعشرين مصحفا كلها محلاة بالذهب مرصعة بنفيس الدر والياقوت، منها المصحف الكبير العقبانى المنسوب لعقبة بن نافع الفهرى الذى كان الملوك يتوارثونه من عهد بنى أمية بالأندلس، ونقل إلى المغرب على يد عبد المؤمن الموحدى، ثم انتقل إلى بنى مرين، ثم وقع بيد الأشراف السعديين، ولم يزل يتداول إلى أن وقع بيد المترجم ووجه معه بألفى حصاة من الياقوت المختلف الألوان العزيز الوجود وسبعمائة حصاة هدية للحجرة النبوية.

وفى العام تـوالت الأمطار حتى هدم قـوس من أقواس قنطرة وادى سـبو، واستهلكت السيول كثيراً من الماشية وأقلعت الأشجار.

وفى السنة ثار العبيد على قـبيلة سفيان وبنى مالك وأوقعـوا بهم شر وقعة، واستحوذوا على كل ما أمكنهم الاستحواذ عليه من مال ومتمول ورجعوا لمحالهم، وبعد أيام قلائل نهضـوا لناحية الفحص لمحاربة الباشا المذكور مـخيما بجنوده، ولما التقى الجمعان انهزم العبيد بعـد أن تركوا إخوانهم صرعى طعمة للعقبان والذئاب، ورجع الريفى لمقره بطنجة.

وفى أوائل المحرم عام ستة وخمسين ومائة وألف، نهض الباشا أحمد الريفى بخمسين ألف مقاتل أو يزيدون لمحاربة المترجم، ونزل على وزان بقصبة ازجن من بلاد مصمودة، وكان الإبان إبان مطر، فحبس به هنالك نحو الشهر، وشرفاء وزان قائمون بكل ما يلزمه من مئونة وعلف دواب وسائر اللوازم.

وفى عشية يوم الثلاثاء ثانى عشرى محرم المذكور نزل الباشا المذكور بجموعه المتكاثفـة بالعسـال من مزارع فاس مـن ناحية قـنطرة سبو، فـناوشه القتـال بعض القبائل، ثم ورد عليه جند مـن العبيد معززين له، وانضم إليه من القـبائل الجبلية نحو الخمسة عشر ألف رجل، ثم لحق به متبوعه المستضىء وأتباعه من عبيد الرمل وتازا ومكناس وبنى حسن، وكـان الحياينة وشراقـة وأولاد جامع جاءوا لتحـصين فاس، ونصرة صـاحب الترجمة لما علمـوا بمقدم الريفى ومتبـوعه، ونزلوا بحللهم باجنتها وأحـدقوا بها من كل جهاتهـا، وتوجه المترجم فى عشـرة من أتباعه لآيت أدراسن يستـصرخهم ويسـتنصر بهم ويعرفـهم بمقاصد الريفى، فـأجابوه لما أراد، ووجهوا لحلفـائهم من آيت ومالوا وبنى حكم وزمور وكروان يسـتنهضونهم ورجع المترجم من حينه لداره دار الدبيبغ.

ثم لحقت القبائل البربرية المذكورة بمحال الريفى والمستضىء، وذلك يوم الخميس ثانى عشرى صفر الخير من العام، ولما أقبلوا عليهم صاحوا وحملوا عليهم وحكموا فيهم سيوفهم وهزموهم شر هزيمة لم يسمع بمثلها، حتى إن عدداً عديداً منهم رموا بنفوسهم فى الوادى فغرقوا، واستولت جنود المترجم على جميع ما كان بمخيمهم من مال وعدة وكراع، وقد كان الأمير أبو عبد الله محمد نجل المترجم حاضراً بهذه المعركة، وكان عدد من قتل من جند المستضىء والريفى ثمانمائة، ورجع الريفى لمقره طنجة وقام على ساق فى تجديد الاستعداد رجاء الأخد بالثأر، وأقسم ألا يأكل لحما ولا يشرب لبنا إلا إذا احتل فاسا وجاس خلال خيم أولئك البرابر.

ولما كان أول جمادى الثانية من العام نهض من طنجة ووجهته فاس، ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة طير الإعلام لأنصاره من القبائل البربرية وغيرهم، ثم نهض من فاس فى مهل جمادى الأخيرة وخيم بوادى سبو، وهنالك استعرض جنوده وعساكره ورتبها أحسن ترتيب، فجعل رماة أهل فاس مع خاصته وعبيدة، ورماة العبيد مع بوعزة صاحب الشربيل، والودايا وزرارة وأهل سوس مع ولده أبى عبد الله الأمير محمد، وآيت يدراسن وجروان فى رماة حاجبه القائد عبد الله اليمورى، وشراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فى رماة قائدهم أحمد بن موسى الشركى.

وسار على هذه الحال إلى أن قرب من مخيم المحال الريفية، ولما علم الريفى أن المترجم بات على مقربة من مخيمه ارتحل بجنده وسار إلى أن أقبل على وادى لوكس، ورأى جيوش المترجم بدار العباس على ضفة الوادى المذكور مقبلة فاستقلها ونزل وأمر أتباعه بالنزول، ولما رأى المترجم اشتغال محال الريفى بالنزول

نادى فى عساكره لا نزول إلا بغنيمة أو هزيمة، فأجابوه بالسمع والطاعة، وانقضوا على المحال الريفية انقضاض البزاة فولوا الأدبار منهزمين، وتركوا جثتهم وأشلاءهم مبعثرة بالهضاب والسهول من بينهم جثة الزعيم الريفى فقطع رأسه وأتى به للمترجم، وذلك صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الثانية من العام، ووجه برأسه لفاس فطيف به بالأسواق، ثم علق بباب محروق، ولم يزل معلقا هنالك إلى أن قدم على المترجم أولاد أبى زيد عبد الرحمن الثعالبى من الجزائر متشفعين للمترجم فى إنزاله، فشفعهم وأصدر أوامره المطاعة بإنزاله، ووجه القاضى إذ ذاك عدلين لمشاهدة إنزاله وتسليمه للمتشفعين فيه، فذهبا - أى العدلان - وهما العلامة خطيب المدرسة العنانية من طالعة فاس أبو عبد الله الحارثى الدلائى والعلامة المفتى الشيخ أويس، وكتبت بذلك وثيقة من إنشاء أبى عبد الله محمد بن علال وإليك نصها:

الحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، العفو الذى يحب العفو حتى لا يهتك الستر ولا يؤاخذ بالجريمات، الذى من كمال عفوه ورحمته ومنته أن وعد بالجنة التى أعدت للمتقين، للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أحلم رسول أرسله، المأمور بإعطاء من حرمه، وإيصال من قطعه والعفو عمن ظلمه، بقوله فى الكتاب المبين ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وعلى أصحابه وأنصاره وأحزابه وآله البالغين الغاية فى اتباعه، واقتفاء اتباع أتباعه..

وبعد: فعن الأمر المطاع، الذى يجب له الانقياد والاتباع، والإذن الشريف العلوى، السلطانى المولوى، أمر مولانا أمير المؤمنين، المحفوف من الله تعالى بالنصر والتمكين، فخر الملوك والأشراف، وظل الله على الأقوياء والضعاف، خليفة الله فى أرضه، وأمين الله على جنده بطوله وعرضه، المعتمد فى أموره على

مولاه الذى ولاه، أبو محـمد مولانا عبد الله، أيد اللـه أوامره، وظفر بمنه جنوده وعساكره، عاين شهيداه ظهيره الأسمى، وطابعه الشريف الأنمى، بيد حملته السيد فلان، والسيد فلان، بقبول شفاعتهما فى رأس أحمد الريفى المخالف أمر السلطان وصحبته كتاب لخليفته الأسعد، وركن إيالته الأرشد، خديم المقام المولوى، وشيخ الركب النبوى، القائم بأمر مولانا المـنصور، المضاعف له فى الثواب والأجور، فى سعيه الصالح، ومتجره الرابح، التاجـر الجليل، الحاج عبد الخالق عديل، المتضمن عفو مولانا نصره الله وأيد أمره وخلد فى صـفحات الدهر مآثره الشريفة، وأوامره عن رأس خديم إيالته الشريفـة، وعتباته المنيفة، الباشا أحـمد بن على بن عبد الله الريفى، من إنزاله من شـرفات باب الشريـعة من فاس، أمنهـا الله من كل باس، ودفعه لحملة الظهير الشريف، العالى القدر المنيف.

ففعل العامل المذكور ما أمر به امتثـالا للأمر الشريف السعيد، المحفوف من الله تعالى بالنصر والتأييد، والعز المديد، ودفع لمن ذكر بمحضر شهيديه ومعاينتهما لما سطر، فمن عاين ذلك كما قرر، وشهـد على من ذكر كما حرر، وهم عارفون قدره وعـرفهم فى يوم السبت السـابع عشر من شـوال عام ستـة وخمسـين ومائة وألف، والله تعالى يحسن عاقبة الجميع فى يوم البعث والنشور هـ.

هذا ولما مات الريفى ومـزقت أشلاء أحزابه كل ممزق استـولى المترجم على البقية البـاقية من معسكره، ثم قدم عليه أهل تلك الجـبال والخلط وطليق وغيرهم لتقـديم الطاعة وطلب العفو والأمـان، فعفا عـفو قادر، وبعد ذلك توجـه لطنجة وألقى القبض على خاصة الـريفى وعماله، واستصفى أموالهم، ووجـه القائد عبد الخالق عديل وجماعة من أهل فاس لحيازة ما بدار أحمد الريفى المذكور، وأمر أهل الريف بالإتيان بما له عندهم من ماشية وغيرها، ولما جمع ذلك وأحصى فرقه فيمن كان معه من البرابر، وكان نحـو الأربعة آلاف وأقام المترجم بجنوده بطنجة أربعين يوما.

أما المستضىء فإنه لما علم بموت عضده الأيمن وساعده المساعد أحمد الريفى، أغرى من معه من العبيد وبنى حسن على الأخذ بثأر إخوانهم واستئناف قتال صنوه المترجم، وقطع خط الرجعة بينه وبين فاس، فأجابوه لذلك.

وأطلق عيونه لترقب حركات المترجم وسكناته وإعلامه بظعنه ومقامه، فكانت تأتيه بتفاصيل ذلك، ولما بلغه أن صاحب الترجمة خيم بدار العباس التى كانت بها تلك المعركة التى قضت على جموعه بالدمار والخذلان، ركب فى أتباعه من العبيد وبنى حسن، وصبح المترجم على حين غفلة، ولما التقى الجمعان ولى المستضىء وجنوده الأدبار. وانكسروا أى انكسار، مات من خصوص بنى حسن ما يزيد على الألف، وسلب لهم من عتاق الخيل والسلاح ما يزيد على الخمسة آلاف، ومات من العبيد نحو الخمسين.

وبعد الهزيمة فر القائد حسن فنيش هاربا، وهو أخو الباشا عبد الحق فنيش عامل سلا، فلقى فى ذهابه أحد قواد عبيد الرمل كان مصاحبا له وقد مات له فرسه فى المعركة، فطلب من القائد الحسن أن يردفه فأردفه لسابقية الصحبة، ثم غدر العبد به وأكبه على رأسه وشد وثاقه وأقسم له يمينا بالله إن لم يسر أمامه حتى يقتله، فسار به إلى أن أوصله لصاحب الترجمة ولما مثل بين يدى المترجم، قال له: أنت يا فنيش من علوج أبى إسماعيل ووالدك كذلك، فلم تركت خدمتى وأخذتك الغيرة على الحمار ابن الحمار؟ فقال له فنيش: أعتقنى وأنا أعطيك عشرين قنطارًا فقلع المترجم عشبة من الأرض، وقال له: هذه العشبة عندى أفضل من مالك، وأنشد متمثلا بقول القائل:

إن الأسود أسود الغيل همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

وضربه بمزراقه فقتله، وذلك بوادى الدزاز من وزان.

ثم نهض المترجم وسار إلى أن حل بفاس مؤيداً منصوراً، فكسا وفرق الجوائز، وعمم الصلات بدار الدبيبغ إلى ربيع الثانى من عام سبعة وخمسين، فقدم عليه رءوس العبيد وقوادهم ببيعتهم له وإعلامهم بخلع المستضىء، خاضعين معتذرين طالبين عفوه وصفحه عما اقترفوه.

فعفا وصفح على عادته ووصلهم، وأمرهم بالتهيُّؤ لقتال بغاة بنى حسن ومن فى حلفهم من شيعة المستضىء كدكالة أخواله وأهل مراكش المتمسكين بطاعته سعيا وراء جمع الكلمة وإطفاء نيران الفتن التى حصت كل شىء، فأجابوه بالامتثال والسمع، وأمرهم باللحوق به لدار ملك أبيه مكناسة الزيتون، وأصدر أوامره للحياينة وشراقة وأولاد جامع وأهل فاس والغرب بالإتيان إليه بحركتهم لأجل ما ذكر.

ثم نهض لمكناس وبها اجتمعت عليه تلك القبائل، ووفدت إليه الوفود ببيعاتها وبعد تجديد البيعة العامة له وهى البيعة الخامسة، كتب الكتائب وجند الجنود، ورتب الجيوش، ونظم المقاتلة، ونهض قاصداً بنى حسن على طريق الفج ليحول بينهم وبين الشعاب التى يتحصنون بها.

قيل: كان نهوضه فى ذى القعدة الحرام من العام، وسار إلى أن وافاهم ببسيط زبيدة، ففروا أمامه للغابة، وخلفوا حللهم وأموالهم غنيمة باردة، وما كان مساء اليوم حتى جاءوا تائبين منيبين، فعفا عنهم ورد عليهم مالهم وارتحل عنهم.

وسار إلى أن نزل بداره من القصبة الكائنة بأبى لعوان بين الشاوية ودكالة، وخيمت عساكره أمامه ببسيط دكالة، وقد كان أهلها فروا مع المستضىء للحوز، فأقام المترجم بدكالة سنة كاملة بعساكره، أتى فيها على ما لتلك القبيلة من زرع وضرع، وقطعت أشجارها وهدت قراها ومداشرها وصيرها بلاقع كأن لم تغن بالأمس.

ثم انتقل لبلاد السراغنة، وما استقر به الثوى بتلك البلاد حتى وفد عليه أهلها طائعين وفى عفوه راغبين، وانضموا لجيوشه، ثم وثب البعض من السراغنة على ستة من صعاليك العبيد وقتلوهم لارتكاب عار وذعر.

ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة أسرع للانتقام من غير فحص عن السبب، فقتل منهم عددا كبيرا، ونهض من بلادهم مغاضبا، ثم وفد عليه دمنات وما والاها من سهل وجبل طائعين مذعنين، ثم انتقل لبلاد زمران وأعلام النصر خافقة، ولما حل بها قدم عليه الرحامنة وأهل سوس والدير وقدموا لجلالته الطاعة وانضموا بمحالهم لمحلته.

ثم تقدمت تلك الجنود الجرارة لبلاد مسفيوة، حيث كان المستضىء وأحزابه، وشبت نيران القتال بين جيوش المترجم وأهل مسفيوة ومن انضم إليهم إلى أن فشلوا، وفلت جموعهم وضعفت البقية الباقية عن المقاومة، فأتوا للمترجم بنسائهم وصبيانهم حاملين الألواح والمصاحف يستجيرون، ولما مثلوا بين يديه طلبوا من جلالته المقابلة بما جبل عليه من الحلم والإغضاء، فأمرهم بالإتيان بالمستضىء، فأخبروه بأنه قد فرّ لمراكش، فعفا وسامح، ثم ورد عليه أهل دكالة بنسائهم وصبيانهم كمن قبلهم، فقابلهم بالصفح وأمرهم بالرجوع لبلادهم، وألقى عصاه واستقر به الثوى إلى أن وفد عليه أهل الدير ببيعتهم وهداياهم، وطلب الرحامنة وأهل سوس من جلالته المسير معهم لمراكش فأسعف رغبتهم.

أما المستضىء فإنه لما فر من مسفيوة لمراكش صده عنها أهلها، ولم يزل يتردد بين القبائل ولا يقابل بغير الطرد إلى أن بلغ الفحص وأقام بحوز طنجة كما مر.

وبينما يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى التوجه لمراكش، إذ ورد عليه أعيانها وشرفاؤها ببيعتهم، وقدموا لحضرته طاعتهم وأبدوا أعذارا عما تورطوا فيه من شق عصا الطاعة، وطلبوا من جلالته القدوم لبلادهم، وقد كان جل تلك الجيوش سئم

الحرب وكل ومل من الغربة وفـراق أوطانهم نحو العامين، فصـاروا يتسللون حتى لم يبق بالمحال إلا نحو النصف من الجيش ورؤساء القبائل، فرأى المترجم أن الرأى هو أن يرجع لعاصمـة ملكه ودافع الراغبين فى التوجـه لمراكش بالتى هى أحسن، وعين ولده الأميـر أبا عبد الله خليفة بهـا، ووجه به إليها فى معـية وفدهم وذلك عام ثمان وخمسين ومائة وألف.

ثم ولى وجهـه نحو العاصمـة، وكان مروره على تادلا وأقام بهـا أياما، ثم سار إلى أن بلغ لرباط الفتـح، واستخلف به ولده أبا العباس أحـمد، ثم سار إلى أن خيم بقـصبة وادى أبى فكران وذلك فى خامس عـشرى ربيع الثانى عام تـسعة وخمـسين ومـائة وألف على ما فى التـرجمـان المعرب وغيـره، والذى فى تاريخ الضعيف أن المترجم دخل مكناسة الزيتون أوائل ربيع الأول والله أعلم.

وفى مهل جمادى الأولى خرج من الحضرة الفـاسية وجهاء البلد من العلماء وذوى المناصب لتهنـئته بسـلامة القدوم وتقـديم ما يجب لجلالتـه، فسر بمقـدمهم وقابلهم بكـل تجلة وإكبار، ووصلهم وأكـرم وفادتهم، ثم ودعـهم وأمرهم بالأوبة لوطنهم، ووجه معهم الرماة الذين كانوا معه.

ووفد على حضرته أيضا قائد طنجة ووجـهاؤها وأولاد الباشا أحمد المذكور ونساؤه بهدية سنية وتحف نفيسة، وكـان عدد الوافدين يتجاوز المائة، ولما مثلوا بين يديه قال لهم: إنه قد بلغنى أنكـم استخرجتم مالا كـثيرا كان أخفاه البـاشا أحمد عند خروجـه ثانى مرة لمبارزتى واقـتسمـتموه فـيما بينكم، وأمـرهم بشرح الواقع فأجابه سبـعة منهم بالإقرار، والباقى بصريح الإنكار، فأمـر بزج الجميع بالسجن، وبعد ثلاث سرح السبعة المقرين، وهم: الـعاقل، وأولاد الباشا، وبنو عمهم وأمر بقتل المنكرين فقتلوا جميعا، وفى ذلك اليوم نفسه قتل من بنى حسن وغيرهم نحو ثلاثمائة نسمة.

ثم وجه نفرا من حاشيته لطنجة للإتيان بمال الريفى المذكور، فقام فى وجوههم أهل طنجة وصدوهم وشتموهم أقبح شتم، بل هموا بالإيقاع بهم لولا أنهم نجوا بأنفسهم، ولما رجعوا للمترجم وأخبروه الخبر ثار غضبه، وأمر بقتل من كان أبقى عليه من أهل طنجة المذكورين.

وبعد ما نفذ الأمر فيهم أخبر صاحب الترجمة أن المال الذى كان قد أخرج من طنجة وأمنه عند عديل بفاس صرف منه فى مصالح نفسه عددًا لا يستهان به، فأصدر أوامره بالإتيان بذلك المال، ولما أحضر أمر بوزنه فأخبر من باشر الوزن بأنه يخص من العدد المؤمن اثنان وثلاثون ألف قنطار عدة قديمة، فألزم عديل بأداء العدة فعجز، وضمنه بعض الرؤساء ووقع عليه الإشهاد بالأداء حلولا، وأمر بإعطاء عشرة آلاف مثقال صلة للودايا، سكان فاس الجديد، فكان من أقوى موجبات وغر صدر أهل فاس على صاحب الترجمة، حيث خص الودايا بالعطية دونهم، والحال أنهم - أى الودايا - أول من شق العصا عليه، وهم - أى أهل فاس - أول من تمسك بطاعته وآخر من قاتل دونه.

ومما زاد الطين بلة وطنبور الفتن نغمة أمره للمسخرين من جيشه بأكل زرع ما حرثه آيت يدراسن أنصاره بأحواز العاصمة المكناسية انتقاما منهم لتأخرهم عن الإتيان لحضرته للتهنئة بسلامة القدوم، وبعد ذلك كتب الرئيس القبيل المذكور محمد وعزيز يلومه عن التأخر، وقد كانت بينه وبينه صداقة ومصافاة تامة، حتى كان صاحب الترجمة لا يخاطبه إلا بيأبت، وكل ما يرومه يمضيه بدون أدنى توقف.

ولما وصل الكتاب السلطانى لوعزيز جمع إخوانه وأمرهم بجمع هدية والإتيان إليه بها ليتوجه بها مع وجوههم للحضرة السلطانية، فأظهروا الامتناع وتعللوا بالخوف على أنفسهم إن هم ذهبوا لعدم توقفه فى سفك دماء الواردين

عليه، فتكفل لهم بأنهم لا يرون منه إلا ما يسرهم، وأنهم ليسوا كغيرهم بناء على ما يعتقده من كامل الصداقة، وأنه يستحيل لديه أن تخفر له ذمة عند الأمير المترجم، فأجابوه لما اقترح، وعينوا مائة من صدورهم للتوجه مع رئيسهم المذكور، وساروا بهديتهم إلى أن وصلوا لمخيم السلطان بقصبة أبى فكران، واستقبلوا حاجبه عبد الوهاب اليمورى.

فأخبر السلطان بمقدمهم فأمر بإدخالهم لبساطه مجردين من السلاح، ولما مثلوا بين يديه أحدق بهم لفيفا من الحرس ثم قال لمحمد وعزيز هؤلاء حادوا عن الطريق المثلى، وعاثوا فى الطرقات وروعوا المسلمين بالسلب والنهب، وأخذوا أموال التجار غصبا ولم يتركوا ضعيفا ولا يتيما ولا مسكينا إلا وآذوه فى ماله وبدنه، فإذن مالهم ودمهم حلال.

وأمر الحرس بإلقاء القبض على جميعهم غير وعزيز فانقض الحرس عليهم وأوثقوهم بالحبال وساروا بهم إلى بطون السجون، فقال له وعزيز: أغدرًا بعد عهد! فقد جاءوا فى أمان.

فأجابه المترجم بقوله: هؤلاء حاربوا الله ورسوله، وسعوا فى الأرض الفساد، وقد خير الله فيهم الإمام، فقم أنت فى حفظ الله لأنك بمنزلة والدى لا تخاف دركا ولا تخشى، فقال له: لا أقوم إلا مع إخوانى، فإن ماتوا مت، وإن عاشوا عشت، وكيف يسمع عنى أنى قدمتهم للذبح ورجعت ! فأى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى؟ لابد أن يقتلنى إخوانهم وأخلف بعدى سبة لا تنفى مدى الأبد، وقد تنبئوا بهذا لما أمرتهم بالقدوم معى لحضرتك، فقالوا: إن ذهبنا إليه سلك بنا مسلك من قبلنا من الوافدين عليه، فنفيت لهم ذلك، وأعطيتهم العهود والمواثيق على أنهم لا يقابلون من جلالتك إلا بالجميل ووافر الإحسان.

فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال لحاجبه المذكور: يا عبد الوهاب لا خير فى رجل يقول لرجل: يا أبت، ثم لا يشفعه فى قبيلته، وأمر بتسريحهم فسرحوا، ولما خرجوا ركبوا خيولهم وتوجهوا لحللهم مع رئيسهم وعزيز.

ولما اجتمعوا بإخوانهم قالوا لهم: لقد أحيانا الله حياة جديدة بعد أن متنا فلا بُدَّ لنا من الأخذ بثأرنا مادام فينا عرق ينبض، وأجمعوا أمرهم على الخروج على المترجم والهجوم عليه بعد ثلاث، ومن تخلف منا عاديناه، وبأنواع الأذى والإهانة سمناه، فلم يشعر المترجم إلا وخيولهم مطلة عليه من ناحية الحاجب، فتيقن أن ذلك أمر دبر بليل، ولم يسعه غير حمل عياله وجواريه وإحاطتهم بالخيل والرماة، ثم ركب هو فى من بقى معه من الجند وانحدر خلفهم مع بطن الوادى وتفرق العبيد يمين الوادى ويساره، وتركوا كل ما كان بالمحلة من أمتعة وأخبية وعدة ومقومات غنيمة باردة، وشب القتال بين البربر والمحال السلطانية وحمى الوطيس ودام ذلك إلى أن دخل المترجم على باب القزدير أحد أبواب العاصمة المكناسية، فرجع البربر وقد مات منهم خمسمائة مقاتل، ومن العبيد ثلاثمائة وذلك يوم الخميس سابع شعبان العام.

ثم اتفقت كلمة العرب على الخروج على المترجم، ووافقهم على ذلك شيخ العرب محمد الحبيب المالكى الحمادى، وقد كان صاحب الترجمة ولاه على إخوانه سفيان وبنى مالك والخلط وطليق وغيرهم من عرب تلك الناحية، ثم بعثوا إلى أهل فاس يحثونهم على متابعتهم فى رفض بيعة المترجم فأجابوهم لذلك، ثم اجتمع رأى العبيد على الانضمام لهؤلاء وكتبوا لإخوانهم يغرونهم على الانخراط فى سلكهم والموافقة معهم على ما أبرموا، وحققوا لهم غدر المترجم ووثوبه عليهم إن لم يربئوا بأنفسهم ويغتنموا الفرصة قبل الظفر بهم، ولما اتصل كتاب العبيد

بإخوانهم وتمعنوه تواعدوا على الرحيل لمكناسة بعد ثلاث إجابة لإخوانهم، وفرارا مما لحقهم من إهانة بنى حسن وإضرارهم بهم غاية الإضرار.

فأخبر السلطان بذلك بعض عيونه، وعندما تيقن صدق الخبر طير الإعلام لأخواله الودايا الذين بفاس يحضهم على القدوم عليه من يومهم قبل بلوغ السيل الزبى، واتساع الخرق على المرتق، واشتغل بجمع ماله وأثاثه وحمل ما عز عليه وأسراج خيله مظهرا أنه يريد الرجوع لقصبة أبى فكران حيث كان مخيمه، ولما كان وقت العشاء ورد عليه من خيل أخواله الودايا أربعمائة، فخرج من باب القزدير بجميع ماله وعياله ولم يترك بدار الملك غير النزر مما لا يؤبه به، وسار فى معيتهم إلى أن بلغ دار ادبيبغ.

وفى ثالث عشر شعبان اجتمع البربر مع بنى مالك بفاس لقتال الودايا، فتحصنوا بالمدينة البيضاء فاس الجديد، ثم عاث البرابر فى الطرقات ونهبوا دار ادبيبغ، وقلعوا أبوابها وحرقوا الأخصاص التى كانت محدقة بها، وجعلوا يغيرون على سرح الودايا ويناوشونهم القتال، ومات من الفريقين عدد عديد، وشبت نيران الفتن وقطع الودايا الماء على فاس القرويين.

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من شعبان المذكور وقع التوافق على أن لا يذكر اسم المترجم فى الخطب، واشتبكت الفتن وارتبكت وكثر الهرج والمرج، وامتد ذلك نحوًا من سبعة وعشرين شهرا.

وفى أوائل رمضان أخلى العبيد مشرع الرمل، وبقيت بيوتهم خاوية بما ظلموا، ولما لحقوا بإخوانهم لمكناسة، نزلوا بالقصبة والمدينة والأروى وقصبتى بريمة وهدراش، وبعضهم اتخذ الأخصاص والعرائش بضواحى المدينة والرحاب المتسعة وثووا هنالك فى البلاد، وخرب بنو حسن ما خلف العبيد بمشرع الرمل من الدور والقصور التى كانوا يتنافسون فى تشييدها.

ولما وافى عيد الفطر وجه العبيد الذين بمكناسة جماعة من قوادهم فى معية قاضى البلد أبى القاسم العميرى ووجوه الأشراف لحضور العيد مع المترجم والاعتذار عما صدر منهم، وطلب رجوع جنابه إلى عاصمة الملك مكناس.

ولما وصلوا لحضرته ومثلوا بين يديه قابلهم بالعفو والإغضاء، ووصلهم وكساهم ووعدهم بتوجهه للعاصمة المذكورة، فانقلبوا إلى مقارهم فرحين مبتهجين، ولما كانوا فى أثناء طريقهم لمكناس اعترضهم البرابر بوادى الجديدة وسلبوهم حتى مما يستر عوراتهم، ولم يفلتوا منهم غير القاضى المذكور أبقوا عليه ثيابه وبغلته.

ثم صارت البرابر تغير على الذين نزلوا بضواحى مكناس وتنهب أموالهم وأولادهم حتى ضاق بهم المتسع، وتفرقوا فى البلاد، ولم يبق منهم إلا القواد وشرذمة من أهل الحرف والصنائع، ومات منهم بالزلزال الذى وقع بمكناس خمسة آلاف.

وفى فاتح جمادى الأولى عام ستين قدم قبائل البربر وقبائل العرب لإعانة أهل فاس على محاربة المترجم فنزل القائد الحبيب بإيالته الغرب والخلط، وطليق بدار الأضياف، ونزل محمد واعزيز بأتباعه البرابر بجبل أطغات، وانحجر الودايا بفاس الجديد، والعبيد بقصبة شراقة، وأحاطوا بالمترجم بداره دار الدبيبغ إحاطة السوار بالمعصم.

ولما كان الغد ركب العبيد والعرب وقصدوا دار الدبيبغ والبربر على آثارهم، فلما بلغوا حريم الدار المذكورة اتصل بهم أن البربر غدروا ونهبوا محلتهم فارتاعوا ورجعوا القهقرى منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض، وتفرقت تلك الجموع الباغية، وكفى الله المؤمنين القتال، قيل: إن المترجم أغرى واعزيز بمال وجهه إليه ليلا على تفريق تلك الأحزاب ففعل، وسقط فى يد أهل فاس وبقوا يتجرعون الغصص فى ضيق وعناء يستغيثون فلا يغاثون.

وفى انقلاب عرب الغرب من انكسارهم هذا لبلادهم مروا بحلة بنى حسن فانتهبوها، فقدم بنو حسن على السلطان شاكين إليه بما فعله بهم عرب الغرب فحركوا منه ما كان كامنًا بصدره عليهم، وجيش إليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا للإيقاع بهم أخذا لثأر بنى حسن منهم، ولما شعروا بنهوض الجيوش التى لا قبل لهم بها للاقتصاص منهم انجلوا عن البلاد وتوجهوا للعرائش وتحصنوا بأسوارها، فاقتفت أثرهم تلك الجيوش وأحدقت بهم وشددت الحصار عليهم ثلاثة أشهر، هلك فيها لهم الزرع والضرع ثم رق لهم المترجم ووجه لهم شرذمة من الودايا بأمانه ومصحفه وسبحته، وأفرج الجيش عنهم، وقدموا مع الودايا على المترجم بهداياهم تائبين، ولفضله شاكرين، فولى عليهم كبيرهم الحبيب المالكى، وأضاف إليه قبائل الجبل كلها.

وفى شوال عام واحد وستين ومائة وألف، استأنف أهل فاس الرضوخ لطاعة المترجم وتجديد البيعة له، وذلك بواسطة بعض بنى عمه من أهل سجلماسة، والعلامة أبى الإجلال عبد الكبير السرغينى، فأنهضوا وفدا من الأشراف والعلماء وذوى الجاه والوجاهة فى طليعتهم الفقيه المذكور ومعهم هدية قيمة للعاصمة المكناسية إظهارًا للخضوع، وطلبا فى العفو والصفح، ولما مثلوا بين يدى المترجم سب وجدع ثم سامح وأحلم وردهم لبلدهم ردًا جميلاً، ثم انعقد الصلح بين أهل فاس والودايا، وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة.

وفى هذه الأعوام انتشر الوباء الجارف فى هذه السنين سائر البلاد المغربية وتفاحش الغلاء.

وفى ثامن عشر جمادى الأولى، وقيل الثانية من العام، نهض المترجم من فاس لمكناسة، لكسر شوكة متمردة البربر وخيم بقصبة أبى فكران ينتظر ورود

القبائل التى كانت تظهر له الطاعة، إذ قـد كان استنهضهم لذلك، ولما طال انتظاره وتبين تقاعسهم عن اللحوق به، رجع للعاصمـة المكناسية بمن كان معه مصابا بألم إحدى عينيه.

ولما سمع البـربر برجوعه لمكناس طمعـوا فيه، وأجمعـوا على غزوه، وزاد طنبورهم نغـمة وطينهم بلة، ما وقع من الصلـح بين الودايا وأهل فاس وذلك يوم الاثنين الثالث عشر من شوال، وخضوع الكـل لصاحب الترجمة، فلم يألوا جهدا فى تفريق الكلمـة واستشـاروا فى التدابير الموصـلة لهم لذلك زعيمـهم واعزيز لما يعلمون فى قـلبه من المرض، فأشـار عليهم بأنه لا يتم لهم مـعه أمر مـاداموا لم يقطعـوا خط الرجعـة بسايس، ويحـال بينه - أى المتـرجم - وبين الموالين له من الودايا والعبـيد وأهل فاس، فـاستـصوبوا رأيه ونزلوا بحللهم فى تلك البـسائط، وأطلقـوا يد الـسلب والنهب، وأغـاروا على سـرح الـودايا وأفـسـدوا زروعـهم وبحائرهم، وجـعلوا يختطفون أطـفال العبيـد النازلين بضواحى مكناس ويغـيرون على سرحهم كلما أمكنتهم فرصة.

وفى أول رجب من السنة ورد الخبر بإلقاء أهل الريف القبض على المستضىء مار الترجمة، واستيلائهم على كل مـا كان له من مال ومتمول لإلقائه القبض على القائد عبد الكريم بن على الريفى صنو أحمد المذكور، وسمله عينه.

وفى شعـبان أوقـد الودايا النار بأجواف باب مـحروق ليـلا، فشعـر بذلك الحرس وطردوهم عن الباب، ومن الغد ركبوا له أبوابا جددا.

وفى ثالث عشرى شوال أوفد أهل فـاس على المترجم بمكناس القائد الحسن ابن صالح الليـرنى، والقائد قاسم بن الأشـهب، والقائد الحاج مـحمد الصـفار، وقاضى البـلد وغيرهم من الأشـراف والعلماء، وكـان ذهابهم على طريق زرهون خوفا من عيث عتاة البرابر، ولما وصلوا لحـضرته ومثلوا بين يديه شرحوا أعذارهم

فى التظاهر بالقيام عليه، وأقاموا الحجج والبراهين على أن ذلك لم يكن عن اختيار منهم، فقبل المعذرة شأن الكرام، وقال: لا تثريب عليكم، وإنى عاهدت الله أن لا أفعل بأهل تلك المدينة - يعنى فاسا - إلا الخير وكتب بهذا كتابا لأهل فاس.

وفى متم الشهر آب الوفد الفاسى لوطنه فرحا مسرورًا، وقرئ الكتاب السلطانى المشار له على منبر القرويين، وبه وقع الإعلان باستئناف بيعته، وانبرم الصلح بينهم وبين الودايا، وتبادلوا الطعام بالمدينة البيضاء وفاس القديمة، وزينت المدينة إظهارًا للارتياح، وإشهارا لما أقاموه من حفلات الأفراح.

وفى ثالث عشرى قعدة قدم ركب الحجيج الذى كان محصورا بتازا لانقطاع السابلة وتوقد نيران الفتن بها.

وفى يوم السبت تاسع ذى الحجة خرج من فاس وفد من أعيانها لتهنئة جلالة المترجم بغرة عيد الأضحى والمشاركة فى أفراحه ومشاهدة فاخر حفلاته، من جملة أعيان ذلك الوفد: القائد قاسم بن الأشهب، والقائد ابن صالح الليرينى، والحاج محمد الصفار، والقاضى أبو محمد عبد القادر بوخريص، وناظر الأحباس التاودى بن أحمد المشاط، فقابلهم بغاية الإجلال وغمرهم بنعمه الضافية، وردهم بعد يومين ردا جميلا.

ثم إن البربر لما علموا بانبرام الصلح بين أهل فاس والمترجم والواديا والعبيد سقط فى أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا وصاروا يضربون أخماسا فى أسداس، ويبذلون جهدهم وطاقتهم فى اتخاذ الحيل فى تفريق الكلمة، ولا سيما لما ثبت لديهم أن العبيد صمموا على الحركة لغزوهم، وأخذوا يغرون القبائل على نصرتهم على ذلك ومعاضدتهم، فلم ير البربر حيلة أنفع لهم من المسارعة لشن الغارات والتضييق على العبيد من كل جهة وقطع الميرة عنهم، ومديد السلب والنهب فى

السبل عـمومًا والعبـيد خصوصا، حـتى ضاق بهم المتسع فلم ينفـعهم إلا الجنوح للسلم ومصالحة البربر، وبعـد اتخاذ الوسائط لذلك صرح لهم البربر بأن السلطان هو الآمر لهم بذلك، فلم يرتب العبيد فى صـدق مقال البربر لما سلف من المترجم مع واعزيز عند تخلفهم عنه حـين أمرهم بغزو البربر، وصاروا يدبرون فى كـيفية يتوصلون بهـا لإلقاء القبض على صاحب التـرجمة والفتك به، فأوعـز إليه بذلك بعض عيونه، فنجا بنفسه لدار الدبيغ وذلك فى صفر سنة اثنتين وستين.

ثم اتصل الخبر بنجله خليفته بمراكش أبى عبد الله محمد مار الترجمة فكتب للعبيد يعلمهم بصيرورته على بال، مما أضمروا لوالده، ويعدد عليهم إحسانه إليهم ويوعدهم إن لم يرجـعوا عما سـولت لهم أنفسهم الأمـارة، فأجابوه بتنفـيذ ذلك الخبـر، وأنه لم يكن خطر لهم قط ببال، ورجـعوا إلى أنفسـهم، وقالوا: إن هذا الخليفة - يعنون مـحمد بن عبد الله - ذو قـوة وبأس شديد، وهو أمامنا، ووالده وراءنا، والبرابر مـحدقة بنا، فكيف الخلاص؟ فـاتفق رأيهم على أن يعيدوا البـيعة لصنو المترجم أبى عبـد الله ابن عريبة المترجم سابقا فأبى وامـتنع، ثم بعثوا لصنوه أبى الحسن على آتى الترجمة وكان يومئذ بسجلـماسة مهد ملك سلفه فقابل طلبهم بالرفض، ولما كانت نتيجة سـعيهم فيما راموه الخيبـة عقدوا صلحا مع البرابر على المبايعة لنجل المترجم أبى عبد الله المذكـور، وأقاموا لهم حججا على أنه لا يصلح للملك وتدبير أمور الرعية غيره فأجابوهم لذلك.

وفى أوائل ربيع الأول أعلن العـبيـد والبـرابر بنصر أبى عـبد الله المذكـور بمكناس وزرهون وخطبوا به على المنابر، وأشاعـوا ذلك فى البوادى والحواضر، ثم جهزوا فئة من أعيانهم وأوفدوها إليه لمراكش لإعلامه بجمع الكلمة على المبايعة له وطلب تعجيل قدومـه عليهم، ولما بلغوا إليه وأبلغوه ما جـاءوا لأجله قبح فعلهم وعنفهـم ثم وصلهم، وقال لهم: ارجـعوا عن غيكـم فإن بيعـة والدى فى عنقى وأعناقكم لا يحل خلـعهـا بحـال، وألزمهم الـرجوع للطاعـة والتـزم لهم بأن لا

يلحقهم أدنى سوء من والده، وأنه يسعى فى إصلاح ذات البين بينهم وبينه، فرجعوا آيسين من بلوغ مقصدهم، ولم يرجعوا عن غيهم بل تمادوا على الدعاية لسيدى محمد والخطبة به، والمترجم مستعير لذلك كله آذانا صما وعيونا عميا، وولده الخليفة المذكور يرجف فؤاده من ذلك خوفا من أن يظن به والده أنه راض بفعل أولئك الأوغاد الجفاة، وصار يتابع الهدايا ذات البال لوالده استجلابا لمرضاته، وإظهارا لطاعته، ولما تيقن صاحب الترجمة كراهية نجله المذكور لسوء فعل العبيد ورفضه لمطلبهم، رام استجلاب القلوب الشاردة عنه، فصار يفكر فى ما يوصله لذلك.

ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى شعبان العام أمر بإعلان النداء بسوق الخميس وغيره من أسواق فاس، بأن كل من أتى إليه من العبيد لدار ادبيبغ يعطى خمسمائة مثقال، ومن تخلف فلا يلوم إلا نفسه، فتساقطوا على أعتابه زرافات ووحدانا ووفاهم بما وعد به، وأمرهم بالكتب لإخوانهم الذين بمكناس وغيرها من البلاد بالإتيان لحضرته، وأن كل من أتى يقبض القدر المذكور تأليفا لهم وكفا لأذاهم، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا وتمردا وطغيانا، شأن النفوس الخبيثة، ولم يقتصروا فى ذلك على أنفسهم، بل أغروا البرابر النازلين بسايس على قتل كل من وجدوه من إخوانهم ذاهبا لفاس، لأنه يعد ناكثا للعهد الذى تعاهدوا عليه، وخارقا لإجماع جموعهم الفاسدة.

فأجمع البرابر أمرهم وشركاءهم ودرسوا الحالة هم عليها وحالة العبيد معهم قديما وحديثا، وما جنوه من ثمار ما زرعوه من الفتن، فتمحض لديهم أن العبيد إنما يسعون وراء ما رأوه مصلحة شخصية لهم، ولو أدى الحال إلى تضحية من سواهم، وأن آكد مصالحهم هلاك البربر.

واتفق رأيهم على الرجوع لطاعة المترجم وعضدهم فى رأيهم الأسد رئيسهم محمد واعزيز، ثم كتبوا للمترجم يطلبون عفوه وأمانه فأجابهم بقبول إنابتهم وعدم

مؤاخـذتهم طبق ما عرف فى غـالب أحواله، وبأثر ذلك وفـد محمـد واعزيز مع إخوته، فأكـرم وفادتهم ووصلهم بعشـرة آلاف مثقال، فـسروا وابتهجـوا ورجعوا لمحالهم شاكرين.

وفى آخر رمضان رجعوا لحضور الحفلات العيدية ومشاهدة الطلعة الإمامية، فوصلهم بمثل ما ذكر كما وصل الودايا، وأعطى لأهل فـاس خيلا مسومة وجواهر نفيسـة وأوانى من الزجاج، وكساهم بفـاخر الثياب، قـال فى الدر المنتخب: تزيد قيمـة ما ذكر على عـشرة آلاف مثقـال بتقويم ذوى العرفـان، ولم يحرم من نواله المدرار غير العبيد الذين جبلوا على كفران النعم.

وفى هذه السنة جمع رأس عـتاة العبيـد، وشيطانهم المريد، المسمى زعـبول إخوانه الذين بمكناس ونواحيه ونهض بهم لسفيان وبنى مالك، ولما رأى المذكورون ما لا قبل لهم به، فروا إلى العرائش، فاحتوى الزعيم وإخوته على ما خلفه سفيان وبنو مالك من مـاشية وغـيرها، وفى منقلبهم دخـلوا القصر على حـين غفلة من أهله، وارتكبـوا كل شنيع على عادة الأوغـاد السفل، وكـان الوقت وقت اشـتداد البرد وتهاطل الأمطار فعظم الخطب واشتد المصاب.

وفى السنة أيضا قـتل المولى الحسن صنو المترجم أولاد أخـيه المولى يوسف، وتسبـب فى خراب دار ابن أخيـه مولاى الشـريف بن زين العابديـن إرضاء لأهل تافيلالت أعدائهم، فدخلوا الدار عنوة وقتلوا أهلها صبرا ظلما وعدوانا.

وفيـها أيضا هجمـت شرذمة من دخيـسة وذوى منيع وعرب الصـباح وآيت عطا، على تافلالت، فنهبـوا الأموال وسبوا النساء والأطفال، وقـتلوا عددًا عديدا من أهلها، وسلبوا تجار أهل فاس القاطنين هنالك من أموالهم، وذلك من نتائج ما فعله الحـسن المذكور بأبنـاء أخيه، ولم يزل الحـسن ثاثرا بتلك البـلاد إلى أن صار الأمر للأمير أبى عبد الله محمد بن عبد الله ونقله لمكناسة وذلك آخر العهد به.

وفى أوائل جمادى الأولى عام ١١٦٣ ضحى يوم الاثنين قدم من الحضرة المراكشية الخليفة السلطانى أبو عبد الله محمد إلى مكناس، وخيم بأبى زكرياء الصبان، ومن الغد دخل البلد، وزار ضريح جده المولى إسماعيل، وقد وجد العبيد لازالوا على انحرافهم عن والده، متمادين على الخطبة به، فتبرأ من سوء فعلهم وقرعهم أشد التقريع، وأمر بإحضار العلماء والأعيان لديه وقال لهم: هؤلاء العبيد بايعونى وبغوا على والدى السلطان، وإنى أشهدكم أننى أبرأ إلى الله مما أجرموه، فهل ترون لهم مندوحة فيما ارتكبوه، فأجابوه جميعا بأن الخروج على السلطان لا يحل، وأن دم مرتكبه حل.

ولما سمع العبيد جواب العلماء ورأوا قوة الخليفة وخافوا شدة بطشه لم يسعهم إلا الرجوع لطاعة المترجم وأنفهم صاغر، وأعلنوا بنصره فى الأسواق والأزقة، ولاذوا بالخليفة فى الشفاعة لهم لدى والده الإمام والاعتذار له عما اقترفوه، والوساطة لهم فى أن لا يحرمهم من نواله، فأجابهم لذلك، وتكفل لهم به.

ثم كتب لوالده بشرح الواقع وطلب الإذن له فى القدوم بهم لحضرته، وأعلمه بأنه أمنهم بأمانه فيرجو ألا يخفر له فيهم ذمة فلم يرد له والده جوابا عن الكتاب، فأعاد الكتابة ثانية فأذن له فى القدوم بهم لحضرته، وواعده بأنهم لا يرون إلا ما يسرهم ويرضيه هو فيهم.

وفى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الأولى هذه قدم الفقيه السيد على بن زيد من عند الفقيه السيد على وهو الباشا بتونس على السلطان المترجم بهدية سنية، يطلب منه عددا من الخيل سماه، ففرح به وأعطاه ستة من إناث الخيل قيمتها ثمانمائة مثقال، وأعطاه خنجرا مرصعا بالياقوت مختلف الألوان لا تعلم قيمته.

وفى يوم الأحد الحادى عشر من جمادى الثانيـة وصل الخليفة سيدى محمد المذكور بمن فى معيته من العبـيد والجند الذى أتى به من مراكش، وكان نحو أربعة آلاف جندى لحضرة والده بدار دبيبغ، ووجـد والده فى موكبه وأهل فاس والودايا فى استـقباله، ولما مـثل بين يدى والده ترجل وأدى التحيـة اللائقة بعلى مقـامه، وقدم إليه هدية ثمينة، وقـدم العبيد، وطلب لهم عفوه وأمانه، فـعفا وأمن، وكان ذلك اليوم من أيام الأفـراح المشهودة، وأقام الخليفـة مع والده ثلاثة أيام يذاكره فى أمور ولايته، وأحوال رعيته.

ولما كان صباح يوم الأربعـاء ودع والده وطلب رضاه وصالح دعائه، ونهض من دار دبيـبغ وخـيم برأس الماء بجنوده الجـرارة، ومن الغـد نهض وخـيم بوادى النجا، وفى يوم الجمعة السادس عشر من الشهر دخل الحضرة المكناسية.

هكذا فى الدر المنتخب، وفى الترجمان وغيره أن والده ودعه من حينه وأمره بالانصراف لمكناس خوفـا من اغتيال البربر، فامـتثل ولم يبت إلا بوادى النجا، ثم سار لمحل مأمـوريته، وكان وصله إليه فى ثامن عشرى شـوال، وتلقاه أهل الهدايا بالرايات والطبـول، وأظهروا بقدومـه غاية الارتياح، وقـدموا لحـضرته هدايا ذات بال.

وفى العـام فشـا الوباء وانتشـر، ودفن بفـاس فى يوم واحد مـا يزيد على أربعمـائة نسمة، واشتـد الأمر وحبس المطر، حتى كـررت صلاة الاستسـقاء ست عشرة مرة.

قـال ابن إبراهيم: فى يوم الجـمـعـة الرابع عـشر من صـفـر خـرج الناس للاستسقاء بباب الفتوح فصلوها، وإمامهم خطيب القرويين أبو مدين الفاسى.

وفى يوم الأحد أعيدت الصلاة بالمحل والإمام الخطيب المذكور.

وفى يوم الثلاثاء بعده صليت صلاة الاستسقاء، والإمام خطيب المقام الإدريسى الفقيه، الناسك الشيخ الكبير ابن الغزوانى السرغينى.

وفى يوم الخميس بعده خرج الناس لصلاة الاستسقاء، وإمامهم العدل سيدى أحمد الطاهرى الجوطى الحسنى.

وفى يوم السبت الموالى أعيدت الصلاة خارج باب الفتوح أيضا، والإمام خطيب القرويين كذلك.

وفى يوم الاثنين ثانى ربيع الأول أعيدت الصلاة خارج باب الجيسة بإمامة الخطيب المذكور.

وأعيدت أيضا فى يوم الخميس بعده بإزاء روضة ابن عباد، والإمام من ذكر.

وفى يوم الثلاثاء الموالى له أقيمت داخل باب الفتوح قرب باب الحمراء بإمامة الخطيب المذكور.

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع المذكور أعيدت الصلاة بالمحل المذكور وإمامها من ذكر.

وبإمامته أيضا أعيدت من الغد بالمحل نفسه.

وفى يوم الخميس أعيدت طبق ما ذكر.

وكذلك أعيدت من غده.

وفى يوم السبت ثامن عشرى الشهر استدعى المترجم لدار دبيبغ وأعطاهم مائة بندقة وست عشرة بندقة وثمانية مثاقيل لكل فرد.

وفى يوم الاثنين متم ربيع أعاد الإمام المذكور صلاة الاستسقاء خارج باب الفتوح قرب ضريح الشيخ دراس بن إسماعيل.

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الثانى أعاد الإمـام المذكور الصلاة بالمحل نفسه. وفى يوم الأحد المتـصل الولاء أعاد الإمـام المذكور الصلاة بالمحـل المعروف بمطرح الأجلة خارج باب الفتوح.

وفى يوم الأحد أعيدت الصلاة بعـد، ولم ينزل المطر إلا فى شهر إبريل آخر العام، ونزلت معه أحجار بلغ وزن بعضها نصف كيلو، ودام ذلك نحو الساعتين، وتكاثرت السـيول وفـاضت الأودية وتهدمـت الدور وقلعت الأشجـار، وتعطلت السبل، وارتفـعت الأسعار، وبلغ القـمح خمس موزونات للصـاع النبوى، وأكل الناس الجيف والنبات.

وفى محرم فاتح عام أربعة وستين، وجه صاحب مراكش لوالده هدية ثمينة مع بعض الخاصـة من أصحابه فتلقـاها بيمنى القبول، ودعـا له بالرضا والخلف، ووجه له مع الهدية كتابا يستلفت فيه أنظاره للعـبيد الذين تشفع فيهم إليه، ويذكره إهمال شفاعته، حيث إنه كان وصل البـرابر الذين وفدوا على حضرته لحضور عيد الفطر مع جلالتـه بصلة قدرها عشرون ألف مثـقال، ورد قواد العبـيد الذين كانوا معهم صفر اليد، فوصل الودايا بصلة تقـدر بعشرة آلاف ريال، والعبيد الذين معه ثلاثة آلاف، وأعطى لمن تشفع فيـهم ولده المذكور عشرين ألف ريال رعيا لـشفاعة ولده، فطابت نفوس العبيد بذلك.

وفى سادسـه أعطى أهل فاس مـائة وسق بين قمح وشعـير كـانت أمانة له عندهم، وأمرهم بتوزيعها على الرماة بعد أن عين منها مائة مثقال تعطى لأبى عبد الله محـمد الغالى بن عبـد الله الشريف الإدريسى، وثلاثين مثقـالا للقاضى أبى محمد عبد القادر بوخريص.

وفى أوائل ربيع الأول السنة قـدم بشدور النصـارى على المترجم ومـعه من المال والثياب والملف وغيرها مما يناسب ذلك نحو من خمسين قنطارا، بعضها فداء بعض إخوانه، وبعضها هدية للسلطان، قاله ابن إبراهيم.

وفى أواخر شعبان توفى ولد المترجم المولى أحمد بفاس، وحضر جنازته جميع كتاب أبيه ووزرائه وغيرهم من العامة.

وفى عام خمسة وستين اتصل بالمترجم خبر قتل أهل تطاوين لعاملهم الحاج محمد تميم، وبعد ذلك قدموا على أعتابه معتذرين ولعفوه مؤملين، فعفا عنهم ولم يعنفهم، بل قال لهم: أنتم وليتموه وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم من يتولى عليكم، فوقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن عمر الوقاش، وفى نظرى أن هذا من الفشل وضعف العزيمة المؤديان لا محالة إلى الفساد وقديما قيل:

ويقبح وصف الحلم فى سمة الفتى إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وقيل:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعدا مضر كموضع السيف فى موضع الندى

والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ... ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفى أوائل ربيع الأولى من العام ورد على الحضرة السلطانية سفير دولة الإصبان بهدية مائة ألف ريال دورو، وتحف ثمينة، وعدد من الملف والحرير والكتان، طالبا فداء أسرائهم الذين بالدولة المغربية، فقبل الهدية وعلق له فكاك الأسارى على فكاك أسارى المسلمين الذين عندهم من غير مال، فكان الأمر كما أراد، ووصل ذكور العبيد وإناثهم بريالين لكل نسمة، وكانوا ألفا ومائتين.

وفى منتصف هذا الشهر بعث البربر إلى الودايا الإعلام بنقض ما كان منبرما من العهد بينهما، وفى غده اختطف البربر ماشية أهل فاس، وكان ما نهب لهم من خصوص البقر ينيف على المائة وتناوشوا القتال.

وفى أوائل جمادى الأولى من العام وفد على الحضرة السلطانية ولد الباشا أحمد بن على الريفى، وشكا إليه بما مسه من الفاقة والاضطرار فرق له وولاه عمالة طنجة وما والاها، ووعده بأنه سيضيف إليه عمالة تطاوين وأعمالها.

وفى يوم السبت خامس جمادى الثانية أنعم على العبيد بخمسة آلاف ريال، وعلى الودايا بمثلها.

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرى الشهر أنعم على أهل فاس بمائتى قفطان وخمسين قفطانا فلبسوها أمامه، ووصلهم بعشرة آلاف ريال.

وفى الشهر نفسه ورجب الذى بعده وشعبان انتشر الوباء فى الأرض المغربية، ولم يزل أمره فى تفاقم إلى منتصف شعبان.

وفى أواخر رمضان وفد العبيد على الحضرة السلطانية بقصد حضور العيد مع علىّ جنابه فوصلهم بعشرة آلاف ريال، وقتلوا أبا عبد الله محمد السلوى، والقائد الحسن زعبول استجلابا لرضا المترجم، إذ كانا من أكبر أعدائه وألد خصومه.

وفى منتصف شوال وفد على صاحب الترجمة صنوه أبو الحسن على آتى الترجمة، فأكرم وفادته وأعطاه مالا جزيلا وذخائر مهمة، وخيره بين أن يستوطن مكناس أو تافلالت، فاختار مكناس فأقره على استيطانها، ثم تشكى منه العبيد فوجهه لتافلالت.

وفى السنة ورد بعض النصارى على الخليفة السلطانى بمراكش يطلب تأمينه والترخيص له فى وسق الصوف وغيرها مما يتوقف على وسقه وشراء المرتب على السفن التى تأتى لمرسى آكدير بقصد الاتجار وحمل البضائع، فأجابه إلى ذلك، وأعلم والده بما راج بينهما فأمضاه، فإذا بالنصرانى أتى لآكدير بسفن كثيرة ممتلئة

بمقومات البناء من جير وآجر وغـير ذلك وعدد من العملة بنائين ونجارين وحدادين وغيرهم، يريد بناء قصبة تحول بين مرابطى آكدير والماء الذى يستقون منه، فتفطنوا لذلك، وطيروا الإعلام للخليـفة المذكور، فأمر بإلقـاء القبض على النصرانى ومن معه، فقبض النصرانى وبعض ممن أتى بهم وفر الباقون فى مراكبهم.

وفى العام نفسه تفاحش أمر صالح المجـاطى وتظاهر بأمور سحرية استهوى بها سخفة العقول من الأوباش وكثير ما هم، وطار صيته بذلك فى القطر السوسى وغيـره، وطمحـت إليه الأنظار، وصـارت الدولة منه فى خطر، فحـذره الخليـفة بمراكش وأنذره، ووعظه وذكـره، فلم يزده ذلك إلا عتـوا وطغيـانا، ولما اشـتدت شوكته رأى الخليـفة أن شوكته لا تنكسر قوة، وإنما يؤخـذ باللين والسياسة إذْ رُبّ حيلة، أنفع من قبيلة، فصار يتظاهر له بالتودد وصفـاء المحبة ويهاديه ويستشيره فى الأمور ويسترشده ويتغافل عـما يضمره ويتـجاهل، ويحمل سائر مـا يصدر على أحسن المحامل، ويشيع ذلك فى الحواضر والبوادى، حتى استفاض ذلك عند الثائر وحمله على الحقيقة ومن يرد الله أن يضله فما له من هاد.

ثم إن الخليـفة نهض من مـراكش لآكدير قـاصدا الإيقـاع بالثائر المـذكور، ويورى بأنه يريد غـزو قبيلة مـجاورة للثائر المذكـور حادت عن الصـراط السوى، وذلك بعد أن استـشار صالحا المذكور فى تأديبهـا، فأذن له فى ذلك وأعطاه تعاليم يتمشـى عليها، ولما كان الخليـفة على مقربة من آكـدير اختار عشرة مـن الفرسان الصناديد ووجههم أمامـه يتجسسون خبر صالح المذكور ويعـرفونه بأمره، فاتفق أن وجدوا السوق عامرة خارج آكدير والرجل راكبًا بغلته يتطوف بالسوق ويرتب شئونه فحـملوا عليه بخيـولهم وألقوا القبض عليـه وأوثقوه وساروا به إلى الخليـفة، ولما رجعوا إليه بالرجل أسيرا أسرع لداره فدخلها واستولى على جميع ما وجده بها من مال وذخـائر وعدة وسـلاح وذلك شىء كثيـر، وأدخل صالحا الـسجن، ولما طال

سجنه وجه لأولاده يأمرهم أن يوجـهوا له موسى وسط خبزة كيـلا يتفطن السجان لها فيـحجزها عنه، ولما بلغته ذبح نفـسه بها، وقد كان فيـما سلف صد السلطان والد الخليفة عن دخـول آكدير ورماه بالأنفاض، وبعد أوبة الخليفـة من هذه الحركة لمراكش أخذ فى إكمال داره بالبديع وغرس جنان رضوان وجنان العافية وغيرهما.

وفى عام ستـة وستين استـقر المترجم بداره دار الدبيبغ، وضـعفت قواه عن الحركة، وظـهر بالمغرب ثوار: فبـالغرب عبد الله السـفيانى، وببنى مالك الحـبيب المالكى الحمادى، وفى أوائل ربيع الأول استقل أهل فاس بأنفسهم وأخذوا يشترون الخيل وجعلوا يركبونها كل بكرة وعشى، واتفقوا على عقاب من لم يشتر الفرس، واستقل كـذلك أهل رباط الفتح بأنفسهم وصاروا يولون عليـهم ويعزلون ويقتلون ويسـجنون، وثار الودايا وطغوا وسـعـوا فى الأرض الفسـاد، وأصاب الضـعفـاء والعجزة من البؤس ما كاد أن يقضى عليهم.

وفى هذه السنة ثار البـعض من عـتـاة الرحامنة ورامـوا نهب مـراكش فلم يوافقهم على ذلك أهل الرأى منهم، وخوفوهم عقوبة السلطان، وشدة بطشه، ثم تحين السفـهاء منهم فرصة ودخلوا علـى النساء الحمامات وثارت بسـبب ذلك فتنة عظيمة بينـهم وبين أهل البلد، وتلفت نفوس، ولما اتصل الخبر بالخليـفة السلطانى بارح مراكش للتأهب لكسـر شوكة المتمردين خوفـا من اتساع الخرق، ونزل بزاوية الشرادى فاهتبل به زعـيمها ووجه للرحامنة اللوم والتـعنيف والعتاب الأليم، على فعلهم الذميم، وكان لهم فيـه اعتقاد قوى ونية صالحة يخشون غـضبه ويسعون فى مرضاته خوفا من أن يدعو عليهم بما فيـه هلاكهم، ولا يشكون فى سرعة استجابة دعائه ولا ريب أن ذلك كان من حسن حظ أهل مراكش وسعادة خليفتهم.

فارتاع الرحامنة وبادروا للخضوع والتوبة والإنابة، ثم استعطف الخليفة فى الرجوع لمحل مأموريته وأوصاه بالرحامنة خيرًا لأن التوبة تجب ما قبلها، إنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه، ومن يومئذ رضخ الرحامنة للطاعة وقابلوا الأوامر السلطانية بالسمع والطاعة وقاموا بذلك أتم قيام.

ولما اتصل بالقبائل الحوزية ما أوجب مبارحة الخليفة لمراكش، أرسلوا إليه رسلهم قائلين: إننا قد ساءنا ما صدر بذلك البلد الطيب من أولئك الأوباش، وإننا تحت أوامركم فيما ترون فى زجرهم وتأديبهم جزاء عما أجرموا، وردعا لأمثالهم، فمُرْ تُطَعْ فالمال والرقاب، ملك لسمو ذلك الجناب، فشكر حسن عواطفهم وإحساساتهم الجميلة، وعرفهم بتوبتهم النصوح، وحمد الله وأثنى عليه ما خوله من ميل قلوب الرعية إليه، واستيلائه عليها من غير سيف ودم مهراق.

وفى السنة أيضا انعقدت الشروط بين المترجم وبين جنس الاصطادوس، وفيها أغار نصارى الجديدة على آزمور، واقتحموا ضريح الشيخ أبى شعيب ليلا وقتلوا به نحو الخمسين من أهل آزمور.

وفى عام سبعة وستين ثار أبو عبد الله محمد وعلى بوثقالا الشريف الكثيرى، وكان ذا حيل ودهاء يتظاهر بالصلاح شأن من يريد الوثوب على الملك، ويقيم الأدلة على أنه صاحب الوقت، من ذلك أنه صنع طبولا من نحاس ببلاد تعرنت، ومن دهائه أنه لم يطلع عليه فى صنعها أحد ممن يريد استهوائهم وجعلهم فى قبضته كالصولجان، ودفن تلك الطبول بالمحل المعروف بماسة من غير أن يعلم بذلك غير خالقه، واختار للدفن موضعا لا يخطر ببال أحد وقوع الحفر به، وقد كان أهل ذلك القبيل يعتقدون أن طبول ذى القرنين مدفونة بتلك الناحية فى

موضع غـير معين لا يطـلع عليها إلا صاحب الـوقت المجدد للدين، وتواتر ذلك الخبر الواهى لديهم وتناقـله كذلك جيل بعد جيل وقـيدوه فى دفاترهم، ولم يكن لأحد منهـم فى صحة ذلك أدنى شك ولا ريب، ومـا ذلك عند سخـفاء العـقول سفهاء الأحلام بمستحيل بل ولا بعيد.

وصار هذا الثائر يتحين الفـرص لاقتناص الملك والوثوب عليه بالتظاهر بنشر دعاية دينية، إلى أن كانت هيعة الرحـامنة المذكورة فاغتنم تلك الفرصة ولم يبق له أدنى شك فى أن الحين حان، فأعلن النداء فى القبائل السوسية بأنه صاحب الوقت والمجدد الأكبر، وأن عـلامة صحة دعواه إخراجه طبـول ذى القرنين التى هى أكبر علامة عند صغيرهم وكبيرهم على صدق مقاله، فنسل المغفلون إليه من كل حدب وكثير ما هم، واحتف حوله ملأ من الأخلاط عظيم.

ولما رأى كثـرة جموعه وإقـبالهم عليه ذهب بهم إلى الموضع الذى دفن فـيه الطبول وحفرها وأخرج الطبول منها، وهم ينظرون فآمنوا به وصدقوا، ورأوا أنهم قد ظفروا بالضـالة المنشودة، والمسلمون ميالون للدين بالطبع، ولا سـيما من ليس لديه علم يميـز به اللجين من اللجين، والغث من الـسمين، فاغـتروا به وتمسكوا بدعوته، وانـتشر خـبره فى الآفـاق، وادعى أنه لا يحتـاج إلى بارود ولا سلاح، وقويت عصبيته حتى لم يستطع من تبين أمره ولم تجر عليه حيلة من علماء وعقلاء القطر السوسى وغـيرهم أن يفوه ضده بـبنت شفة، وكثـر القيل والقال فيـما وراء سوس من القبائل.

ولما شاع أمـره وذاع ولم ينفع الخليـفة السلطانى بمراكش تغـافل، أرسل من طرفه بعض خـاصته الذين حنكتهم التـجارب يختلطون بأتبـاعه ويتبعون حـركاته وسكناته ويأتون إليه بأخبـاره، فساروا إليه ولازموه مـلازمة الظل، واتصلوا ببعض العقـلاء المميزين الملازمـين له، واتخذوهم أصدقـاء إلى أن صاروا يفضـون إليهم

بأسرارهم الخاصة، ودرسوا جميعا حقيقة الرجل المدعى حتى تمحض لديهم أنه أفاك خداع، ماكر يحاول التوصل للملك، ولما قرر أمره للخليفة أصدر أمره لهوارة وهشتوكة أصهاره بقتله وإراحة الأمة من شيطنته ومكره، فنهضوا إليه وقتلوه فى خلق عظيم من أتباعه وأنصاره، ولم يكن لديهم بارود ولا سلاح يدافعون به عن أنفسهم اغترارا بقوله، وحزوا رأسه ووجهوا به للخليفة بمراكش، وأراح الله من فتنته البلاد والعباد.

وفى أوائل رمضان هجمت على المغرب أسراب جند الجراد المنتشر وأهلك الأشجار، ولم يترك منها سوى الأعواد مجردة من الورق والقشر، أما الزرع فقد وجده تم نضجه فلم يحصل فيه أدنى ضرر.

وفيه أخرج أهل فارس من كان بها من العبيد لاتهامهم بإفساد ذات البين بينهم وبين الودايا، ونقل الأخبار إليهم على غير وجهها، فلم يسع العبيد لضعف قوتهم غير مغادرة فاس القديمة، ونزل البعض منهم بالمدينة البيضاء، والبعض الآخر بقصبة شراكة.

وفيها كان الزلزال العظيم الذى هد جل بناءات مكناس وزرهون، ومات به بالردم خلائق، وتسمى هذه السنة سنة الثلجية لما تراكم فيها من الثلوج التى لم يتقدم لأحد عهد بمثلها، قال أبو عبد الله الضعيف: فى ليلة السبت التاسع من ربيع الثانى نزل عندنا بالرباط بالليل ثلج عظيم ما رأيناه أبدًا ولا ذكر لنا أحد من الناس المسنين أنه عقله، ووافق ذلك ليلة الثانى والعشرين من يناير عام أربعة وخمسين وسبعمائة وألف للمسيح.

وفى يوم الاثنين سادس ربيع الأول موافق عشرى دجنبر نزل ثلج كثير بفاس دام يوما وليلة، زاد فى الدر المنتخب: وملأ السطوح أكثر من ذراع ورموه بالأزقة، وبقى بها مدة أيام وليال، ثم نزل مرة أخرى فى أول يناير الموالى.

وفى عام ثمانية وستين انكسرت سفينة حاملة للحجاج فى منقلبها من الديار الحجازية، فيهـا من المغاربة سكان فاس وغيرها أربعمائة نسمـة من جملتهم القائد أحمد الولتيـتى الرباطى، وشريفان من أعيان العراقـيين سكان فاس، ولم ينج من ركابها غير قليل، وكان ورود هذا الخبر المؤلم لفاس فى شعبان.

وفى العام نفـسه توفى زعيم آيت يدراسن، وركنهم المشـيد محمـد وعزيز، وأضرمت نيران الفتن بين قبيله وبين جروان، وكانت الكرة على جروان، حتى إنه لم يسعهم إلا الالتـجاء إلى المترجم وهو يومئـذ ملازم قعر بيتـه بدار الدبيبغ، ولما ضاق بهم المتـسع وعدموا المرعى أخذوا فى بـيع ماشيتـهم بأبخس الأثمان، ثم إن المترجم لما رأى مـا حل بهم رق لهم وآخى بينهم وبين أخواله الودايا، وعـقد لهم حلفا معهـم فقاموا بنصرتهم والدفاع عنهم والأخـذ بثأرهم من آيت يدراسن حتى صيـروا بلادهم حصيدا كـأن لم تغن بالأمس، وقتلوا منهم نحـو الخمسمـائة ولجأ جلهم إلى بلاد شراكة.

ومن آثار احتجاب المترجم ونبذه أمر الرعية وراءه ظهريا وعدم التفاته لكل ما يأتى إليه من أخـبار الدولة، اضطراب جل بلاد المغرب وفسـاد النظام وأكل القوى الضعيف وكثرة الثوار، ولما رأى خليفته بمراكش الرتوق لا تزيد إلا انفتاقا، والسيل قد بلـغ الزُّبَى، وأن والده لا يجيـبه عمـا يصدر إليـه من المكاتب بشرح الـوقائع والأحوال، فـضلا عن أن يبتـدئه بكتاب، جَمَـعَ أهلَ الحل والعقد وفـاوضهم فى الدواء الناجع فى جبر ما انصدع، فأشاروا عليـه بالمسارعة بالنهوض بنفسه لإخماد ما اتقـد من نيران الفتن قـبل أن يعم البلاء، ويلتهب اللـفح الأبرياء، ولات حين مناص، فجـند الجنود، وقوم البنود، وفـرق الأموال، واتخذ سـائر الاحتـياطات اللازمة فيما يأتى وما يذر، ولما كان شوال العام نهض لرباط الفتح.

ولما بلغ ضواحيه سدوا الأبواب فى وجهه، وركبوا الأنفاض وتحالفوا مع رئيس أهل سَلاَ، عبد الحق فنيش على المقاومة والمخالفة والعصيان، ولما رأى ذلك أعرض عنهم وخيم بالدار الحمراء قرب سَلاَ، فتسارع أهلها لفتح الأبواب وخرجوا إليه مع رئيسهم المذكور والصبيان حاملون ألواحهم على رءوسهم متشفعين، وفى العفو والأمان راغبين، قال أبو عبد الله الضعيف: والسيف فى فم عبد الحق المذكور وأولاده الصغار أمامه ويده وراءه، فعفا عنهم، زاد ابن الحاج وأكرمهم وأعطى الصلة لصبيانهم.

ولما رأى ذلك أهل الرباط حلوا أبوب المدينة وخرجوا إليه مع الفقيه أبى العباس أحمد بن عبد الله الغربى، والشريف أبى إسحاق إبراهيم حفيد أبى محمد التهامى الشريف الوزانى، فألقى عليهم القبض وقيدهم بالحديد وأمرهم بإحضار مستفاد المرسى، فأجابوه بأنهم أنفقوه فى بناء سور الثغر، ثم عفا عنهم، ونقل البعض من أعيانهم بأهليهم لمراكش كأبى العباس مرينو الأندلسى، والشيخ أبى عبد الله محمد التونسى الأندلسى، والتهامى مرينو، وولى عليهم القائد العربى المستيرى، إذ كان يعلمه بكل شاذة وفاذة، عن أخبار أهل الرباط قبل التعرف به، ويجعل فى إمضاء كتبه خديمك كدية، ولما حل بالرباط وقدم عليه أهلها قال: أين فيكم كدية؟ فخرج إليه فعرفه وولاه.

وكان الخليفة الأمير لما سدت فى وجهه أبواب الرباط، وجه إليهم صاحبيه الحاج سعيد التامرى الكديرى السرار، والفقيه أبى عبد الله محمد بن زاكور ليؤمنوهم وليأتوا إليه بهم فى خفارتهما، فلم يسعهما غير الامتثال وإن تيقنا أن مرسلهم ممتلئ صدره غيظا على أهل الرباط بما صدر منهم وازداد حنقا حيث سدوا الأبواب فى وجهه، وأنه إذا ظفر بهم لا يفلتهم. فقال الحاج سعيد: اللهم إن هذا الرجل لا يريد بأهل الرباط خيرًا، اللهم لا تلاقينى بهم ولا معه، وكان رجلا

صالحا فاستجاب الله دعاءه، وانقلب القارب الذى ركبا فيه وغرقا رحمهما الله تعالى.

وقد وجد الخليفة أهل سَلاَ، يصنعون سفينة لأنفسهم رئيسها أبو عبد الله محمد عواد السلوى، فأخذها وسفينة أخرى رئيسها أبو عبد الله محمد عواد يدعى قنديل السلوى فأخذها أيضا كما أخذ السفينة التى كانت شركة بين أهل العدوتين سَلاَ والرباط، المصنوعة من خشب جامع حسان المسماة لديهم بالكركجيا. قال الضعيف: وهى أول سفينة طلعت قبل هذه السفن، كانوا يتسببون فيها، وكذلك أخذ سفينة كان صنعها عامله على الرباط العربى المذكور، والذى فى تاريخ ابن الحاج أنه لم يأخذ غير السفينة المشتركة وأبقى الغير لأربابه، وما فى الضعيف أصح فى نظرى.

هذا ولما صفا للخليفة أمر العدوتين سكن الرعب قلوب من سواهم، فرتب العمال على القبائل، ووجه لمدينة شفشاون القائد العياشى عامل رودانة سابقا، ولكنه لما وصل إليهم صدوه وأغلقوا الأبواب فى وجهه وحاصروه، وولى الباشا مسرورًا على القصر، وأصدر الأمر للقائد عبد الله السفيانى بترحيل عمه المولى المستضىء مار الترجمة من أصيلا، ثم رجع لمراكش منصرم العام.

وفى هذه السنة كتب والى طرابلس الغرب العثمانى رسالة للمترجم فى شأن السكة المغشوشة والحياك المدخولة التى كان يحملها الحجاج المغاربة معهم بقصد التجارة فيها فى طريقهم للحجاز، وكانت السكة قد فسدت منذ استقل القائد قاسم ابن الأشهب بالتصرف فى دار الضرب بفاس، فإنه نحس دينار الذهب والموزونات وبالغ فى تنحيس الموزونات غاية مقصده، فكان فى الموزونات عشر فلوس من نحاس وأربعة عشرة فلسا من فضة من غير علم السلطان.

كما أن حالة مناسج الطرازين قد صارت سيئة لما تولى الحسبة الفقيه السيد الطيب الريحانى، وكان المحتسب فى فاس هو الذى يلى البحث فى مناسج الطرازين والحرارين ويمنع من يحدث دخولا أو فراغا فى المنسج أو نقصا فى الحائك، فلما ولى الريحانى غفل عن البحث فى ذلك، فأحدث الحرارون الفراغ فى المناسج وجعلوا مكان الكثيرة النشا من الدقيق.

وأحدث الطرازون الدخول فى المناسج، وجعلوا يصنعون الذراعين الذين يليان الطرفين معقودين ومن أنفاس القيام حلاوة وبياضا ورطوبة ويزدون حال النسج على الطرفين لتمكن الصحة فيها، ويجعلون وسط الثوب فارغا والسدا خشينا أحرش أسود، فإذا نسج الحايك تجد طرفه فى غاية الحسن حلاوة وصحة ورطوبة وبياضا ووسطه مثل الشبكة.

وكان الحجاج يشترون تلك الثياب ويبيعونها فى طرقهم إلى طرابلس وفى أعمالها، ويحملون الدراهم والدنانير ويشترون بها ما يتقوتون به فى الطريق، فظهر النحاس فى طرابلس فى الدنانير والدراهم العام بعد العام، وصارت الثياب تتقطع من وسطها فشكا عامة الناس ما نزل بهم إلى التركى والى طرابلس وأعمالها فأراد القبض على الحجاج، فكلمه فى ذلك بعض فقهاء طرابلس وقال له: الحجاج لم يصنعوا الثياب بأيديهم، وإنما اشتروها ممن صنعها والدراهم والدنانير المتنحسة ليس هم الذين ضربوها، وإنما قبضوها فى أمتعتهم، فأعلم سلطانهم بذلك، فترك الحجاج وكتب رسالة تضمنت خبر ذلك إلى صاحب الترجمة.

ولما دفع له شيخ الركب الرسالة التى وجه له بها صاحب طرابلس وأعمالها بما وقع للحجاج بطرابلس، قرأ الرسالة وبعث بها إلى أهل مدينة فاس، فاجتمع أهل فاس وقرءوها وقص عليهم الخبر الحجاج، فقال لهم بعض من له الرأى من

الفقهاء: هذا منكر متفق على تحريمه يجب تغييره، وقد ذم الله أمة كانوا لا يتناهون عن المنكر فقال: ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: ٧٩].

فاتفق رأى أهل الدين والخير على تغيير ذلك وعينوا من يقوم به، فأمروا الأندلسيين أن يقطعوا مناسج النيارين المدخولة، لأن سوق النيارين فى جهة الأندلس ويقطعون ما يجدونه فى الطرازات من أسداء مدخولا، لأن أكثر الطرازات فى جهة الأندلس، وأمروا اللمطيين بأن يبحثوا فى الحوانيت التى تباع فيها الحياك فما وجدوه مدخولا مزقوه، وأن يقبضوا على القائد قاسم بن الأشهب الذى أفسد السكة ويأتوا به ليجرى عليه حكم الشرع.

فامتنعت طائفة من اللمطيين من القبض عليه، وتبع أهل فاس فى ذلك طائفة منهم، وهم الأندلسيون الساكنون بجهة اللمطيين المحسوبون فى عددهم، فقال لهم أعيان أهل فاس: دونكم فلا يهمنكم شأن هؤلاء فى رجل واحد لا قبيلة له ولا مال ولا أصول بفاس، يبدل ويغير فى سكة السلطان من غير إذنه، فلا ترجعوا عن زجره.

أما الأندلسيون فساروا إلى النيارين وقطعوا ما وجدوه بحوانيتهم مدخولا وغير مدخول، وساروا إلى الطرازات فوجدوا أكثرهم قد حملوا سدواتهم من الطرازات، فقطعوا ما وجدوه فى الطرازات مدخولا.

وأما اللمطيون فأقاموا بذلك الحاج أبا جيدة بن سليمان الأندلسى، والحاج عبد الواحد عاشر من عقب سيدى عبد الواحد صاحب المرشد المعين الأنصارى الأندلسى، لأنهما ممن كان قبض عليهم التركى صاحب طرابلس، فلما كلم فى ذلك خلى سبيلهم ومعهم من تبعهم على تغيير ذلك المنكر، فساروا إلى سوق الجوطية الذى يباع فيه الحياك فوجدوا الحوانيت فارغة حملها التجار لدورهم.

فساروا إلى دار قاسم بن الأشهب ليقبضوا عليه ويأتوا به لتجرى عليه أحكام الشرع فلم يجدوه خارج الدار، فوثبوا عليه فى الدار واقتحموها عليه، فملا دخلوا الدار عليه، وأرادوا البحث فيها، فإذا بطائفة أخرى الذين من تعصبوا عليه قد أقبلت ورموا من بالدار بالحجر، فخرج جميع من كان بالدار، وربما نهب بعضهم من حوائج الدار شيئا، ثم اشتد القتال خارج الدار فى الشارع بالحجارة حتى افترقوا، واختفى قاسم بن الأشهب أياما إلى أن هدن الهرج وخرج، قاله ابن الحاج.

ثم كلف صاحب الترجمة كاتبه الأسمى أبا الحسن عليا اليحمدى بجواب والى طرابلس، فكتب فى ذلك رسالة من بديع صنعه، قال فى الدر المنتخب: إنها اشتملت على أسلوب من البلاغة فى المنثور تسحر الألباب، يعجز عن إدراك ذلك أهل العصر ولولا الإطالة لأوردتها الخ.

وفى عام تسعة وستين وقعت زلزلة أعظم من التى كانت فى العام قبله، اهتزت بها الأرض وربت وبقيت تضطرب برهة من الزمان، وسمع لها دوى هائل وتغيرت العيون، ووقف الماء فى الأودية عن الجرى، وسقطت الدور وتصدعت الجرات العظيمة، وفر الناس من البيوت والأبنية، واتخذوا الأخبية بالضواحى.

ثم وقعت زلزلة أخرى بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوما أفظع من هذه بعد صلاة العشاء، انهدت فيها غالب دور مكناسة الزيتون، وكثير من مساجدها ومنار جامعها الأعظم إلى الأساس، ومسجد القصبة السلطانية، ومات تحت الردم خلق أحصى منه عشرة آلاف، وعلم من لم يشمله الإحصاء عند الله.

قال الضعيف نقلا عن تاريخ الحاج المسناوى الرباطى: وفى يوم السبت السادس والعشرين من محرم فاتح العام موافق واحد وعشرين من أكتوبر سنة ألف

وخمسمائة وخمسة وخمسين وقعت زلزلة عظيمة ودامت نحو أربعة أدراج، وذلك قبل الزوال بثلاثين درجا.

وفى العام قدم على المترجم كافة قواد عبيد مكناس، ولما مثلوا بين يديه طلبوا من جلالته النهوض معهم لعاصمة ملك والده ليكون توجهه معهم برهانا على صفاء باطنه عنهم، فأجابهم: كيف أسير معكم وفيكم فلان وفلان أناس سماهم لهم؟ فرجعوا لمحلتهم، ولما جن الليل وثبوا على الأشخاص الذين عين لهم المترجم وقتلوهم، ومن الغد أتوه برءوسهم، منهم: القائد سليمان بن العسرى، فقال لهم الآن طاب العيش ووضعت الفتن أوزارها، وواعدهم بالقدوم عليهم ووصلهم بأربعين ألف مثقال، وأمرهم بالرجوع لمكناس ورجعوا مسرورين، وقد كان قال للعبيد قبل ذلك: والله لا زلت أصيح عليكم فوق كل ثنية وعلى رأس كل ربوة وهضبة كالذيب وأنتم كالغنم لا شغل لى سواكم أنا عبد الله بن إسماعيل إن لم تعرفونى.

وفى العام قدم أبو عبد الله الوقاش عامل تطاون على المترجم بهدية تقدر بألف ريال وأثاث ونصارى أسرتهم مراكبه، فأكرم وفادته وأعطاه جاريتين ورده ردًا جميلاً.

وفيه حرق الفحص القائد عبد الله السفيانى، قيل بإشارة من صاحب مراكش، أعنى الخليفة السلطانى أبا عبد الله، وذلك عندى لا يصح لاستبداد السفيانى المذكور عن صاحب الترجمة، فضلا عن خليفته واستقلاله الاستقلال التام بناحيته، حتى إنه كاد أن يدعو لنفسه لما أُوتيه من اشتداد الشوكة، ولم يكن له من ينازعه فى تلك الناحية غير الحبيب المالكى، وقد كان المترجم لما ترك الدفاع والمقاومة ولزم قعر بيته، تارة يقول: إذا رفعت إليه مظلمة وقعت فى السابلة إنما أنا ثالث الأمراء، فإن غرم الأميران عبد الله السفيانى والحبيب المالكى أغرم معهما

ثلثى، وتارة يقول، لمن يأتيه من البقية الباقية متمسكة بطاعة السلطان: اذهبوا إلى سيدى وسيدكم، يعنى ولده خليفة مراكش.

وفيه نهض الخليفة صاحب مراكش للشاوية لما ظهر فيهم من العتو والاستبداد والعيث فى الطرقات، فحص منهم كل شىء، وأتى بالقتل على أركان الفساد منهم، ونظم الباقين فى قضب السلاسل ووجه بهم يرتاعون فى قيود الهوان ليعتبر بهم غيرهم ممن هو على شاكلتهم، وسار هو إلى أن خيم برباط الفتح فاستقبله أهلها بالترحاب وإظهار الفرح والسرور، وقدموا إليه هدايا ذات بال وأطعمة فاخرة، أما عبد الحق فنيش فإنه أعرض عنه ونأى بجانبه، وأغلق أبواب المدينة دونه، ولما كان الغد نهض وسار ووجهته القصر من غير أن يلتفت لما قابله به عامل سَلاَ، ولا أن يحرك معه ساكنا فى ذلك، إذ كان الأهم لديه أمامه.

وفى عاشر صفر عام ١١٧٠ أغار البربر على سرح فاس، ونهبوا عددا من بقرهم، كما نهبوا أزواج الحرث.

وفى ضحوة يوم الاثنين رابع ربيع الثانى وقع تخاصم وتشاجر بين القاضى أبى محمد عبد القادر بوخريص وبين بعض الأندلسيين حتى همَّ قائدهم محمد الصفار بقتله، ولولا أنه استجار باللمطيين لقتل، وقام هرج ومرج سدت لأجله القرويين، وعطلت صلاة العصر بها.

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرى الشهر المذكور اتفقت كلمة العامة على هدم سقف البلاط الوسط من القرويين الواقع يسار الثريا الكبرى هنالك واجتمع رأى اللمطيين والأندلسيين وأهل العدوة على حجز حبس المساكين الذى يقبضه الأشراف وغيرهم عمن يستحق وعمن لا يستحق، وبإثر ذلك نجزت فكرة الهدم فعلا.

وفى يوم الجمعة السادس من جمـادى الأولى بعث المترجم لأهل فاس بستة مدافع صغار، فاعترضهم الودايا وأخذوهم، فاجتمع رأى أهل فاس على سد باب محروق فسدوه من الغد الذى هو يوم السـبت، وأعلنوا النداء بأنهم مسالمون جميع من يوالى المترجم من سائر القبائل، ومحاربون لكل من يعاديه.

وفى يوم الثلاثاء المتصل استـقبلهم المترجم واستسمحهم فـيما كان صدر منه لهم وأثنى عليهم.

وفى منتصف رمـضان نهض الخليفة صـاحب مراكش من محل مأمـوريته، يريد النظر فى أمـر الثـغور، وحـسم مادة فتن الـوقاش عـامل تطاوين، الذى رام الوثوب على الملك وقطع دابر الفتان أبى الصخور الأفاك الـذى كان يستغوى قبائل الأخمـاس بما يدعيه لنفـسه من الصلاح، ويوهمـهم بأنه صاحب الوقت ويحـثهم على قتـال صاحب مراكش، ومحـاصرة سبتـة وتأديب أهل شفشاون المحـاصرين للقائد العياشى المشار إليه آنفا.

ولما وصل بلاد الشاوية قـاموا فى وجهـه وقاتلوه إلى أن انهـزم لدكالة، ثم استعد لقـتالهم ورجع إليهم بجنود ذات قوة وبأس شديد، وتولى مقـاتلتهم بنفسه حتى أباد رءوسهم وبدد جموعهم الفاسدة وأذعنوا وهم صاغرون، وسار إلى مدينة سَلاَ، وأمر بقطع الأعـواد من غابة المعمورة وإنشاء السفن، وأصـدر أوامره للباشا الزيانى بالوفود عليه بإخوانه العبيد للقصر، وسار إلى أن وصل القصر.

ولما خيم به وفـد عليه المولى الطيب الشـريف الوزانى، ثم وفد عليه البـاشا الزيانى فى جند العبيد، ولما مثل بين يـديه قال له: أنت سلطان العبيد وأنا سلطان الأحرار، وقد كانت بندقة الخليفة بيده فأطلق فى البـاشا رصاصة صادفته بين عينيه فخـر ميـتا من حينه، وذلك بوادى امـكرول تحت بلد بنى كرفط، وأعطى فـرسه وسلاحه لابن زاكور التطـوانى، ثم قتل يوسف السلاح، وذلك لتأخيرهمـا العبيد

عن القدوم عليه لمراكش، فعند ذلك دخل العبيد رعب فاستجاروا بالمولى الطيب المذكور ووجه لوالده صاحب الترجمة بنحو ألفى مثقال، وولى على العبيد سعيد ابن العياشى.

ثم نهض لجبال الأخماس حيث مقام أبى الصخور، فألقى عليه القبض ثم بدا له فقتله وأراح الرعية من فتنته، وكان قتله إياه بسبت رهونة من لكس، ثم صعد لقنة جبل سكنا، ثم سار لشفشاون وقطع أشجارها عقوبة لأهلها على ما ارتكبوه مع العامل المولى عليهم، ثم بعث العياشى المذكور عاملا على القصر مع ولده سعيد.

ثم نهض وسار نحو سبتة، ثم ارتحل ونزل بتطاوين فخرج لاستقباله أعيان البلد مع عاملهم الوقاش للتهنئة بسلامة القدوم وقدموا إليه هديتهم طبق المألوف، فطالبهم بمستفاد المرسى الذى ترتب فى ذممهم فأجابوه بأنهم كانوا اشتروها من والده بثلاثين قنطارا مسانهة، فنزعها من أيديهم وقال لهم: أنا أولى بشرائها من والدى، ونؤدى له مائة قنطار كل سنة.

وألقى القبض على الوقاش ووجه به لمراكش سجينا، بعد أن هدده بالقتل لسيره فى عمالته على غير الطريقة المثلى، وولى مكانه عبد الله بن زاكور المذكور، وقيل: عفا عنه فسرحه وأقره، ثم سار إلى طنجة ومنها للعرائش.

ثم كتب لوالده يعلمه بما جرى، وأنه حاز المرسى، فأجابه قائلا: هل أنا محجور لك؟ تلك المرسى أتقوت منها، واغتاظ غيظا شديدا حتى قال: اللهم سلط عليه من ذريته من ينزع له ما بيده.

وفى يوم الثلاثاء ثالث شوال ذهب أهل فاس إلى صاحب الترجمة ليقدموا إليه مراسم التهنئة بغرة عيد الفطر وفق المألوف، فسر بمقدمهم وأعطاهم أربعة آلاف مثقال صلة.

وفى آخر شـوال رجع صاحب مـراكش لمقره محل مـأموريتـه، وذلك بعد تنظيم أمور الدولة وإصلاح ما كان اختل من الشئون.

وفى العام وقعت حـرب شعواء بين آيت يدراسن وجروان أعان فـيها الوذايا جروانا حتى انتصروا على آيت يدراسن بوطا النخيلة من سايس.

وفى يوم الاثنين موفى واحـد وعشرين من ذى القعدة قـدم حجاج بيت الله الحرام وفى معيتهم رسول أمير مكة بكسوة البيت العتيق، فسر المترجم بها وابتهج، ووجه بها للضريح الإدريسى، وأكرم الرسول بألف مثقال.

وفى صفر كانت منيته على ما سنذكره فى محله.

هذا ملخص ما ذكره فى ترجمة هذا الأميـر الزيانى فى كتبه، والضعيف فى تاريخه، وابن إبراهيم فى تقـاييده، وصاحب نشر المثانى، وابن الخـياط القادرى، وابن الحاج فى دره، وصاحبـا الاستقصا والجيش العرمـرم، مع مزيد تحرير وضبط وإتقان، إذ تضاربت كثيرا أنقالهم واضطربت أقوالهم وتناقض كلام الكثير منهم.

هذا ولا ريب أن سنة الله فى الدول منذ نشأة العـالم جرت بتطورها أطواراً طور الشباب فطور الكهولة فطور الشيخوخة فطور الهرم فالموت.

وقد قسم ابن خلدون عمر الدولة أطوارا:

١ - طور الظفر بالبغية والاستيلاء على الملك وانتزاعه من الدولة السابقة.

٢ - استبـداد صاحب الدولة الظافرة على قـومه وأهل عصبـيته والاستـيثار بالملك دونهم.

٣ - طور الفراغ والدعة.

٤ - المسالمة والاقتناع بما حصل.

٥- الإسراف والتبذير وهو آخر الأطوار وينتهى بالانقراض.

وقد أفاد محررو المباحث السياسية تطرق الضعف إلى الدولة الاستبدادية وهو كثير ينحصر فيما يلى:

١- التنافر بين الملك وأهله، والسبب فى ذلك أن الملك إذا أتاح له الحظ التربع فى دست السلطنة أخذته أبهة الملك فيقوم فى اعتقاده أن خلال الكمال، وصفات الجلال، انحصرت فيه، فإذا توهم ذلك فى نفسه شق عليه أن يسمع مخالفة من رجال دولته، لا سيما أهله الذين يجوز للواحد منهم أن يخلفه فى الرياسة، فيزداد مع الزمان حذرا من أهله، وتختلف طرق تصرفه معهم أو معاملته إياهم باختلاف مزاجه ودرجة تعقله وسائر أحواله، لكنه فى كل حال يخاف على منصبه منهم.

٢- الركون إلى الحضارة. يصح هذا على الدولة ذات القوة والمنعة، فلا تلبث أن تتحضر حتى تضعف قوتها، ويذهب ما كان لها من شدة البأس، ويصير أهلها إلى الرخاء والتمتع بالملذات، وهذا الرخاء إنما يصيب الملك ووزراءه ورجال دولته، لأن الأموال فى الحكم الاستبدادى تصير إلى هؤلاء، وقد تكون الرعية فى أشد الضنك، إلا من التف حول رجال الدولة وارتزق بالتزلف إليهم ومصانعتهم، والقيام بما يحتاجون إليه من أسباب الملاذ.

٣- اصطناع الجند، الترف والرخاء، يؤثران فى رجال الدولة، فتذهب منهم شدة البأس، فيركنون إلى الملاهى والملذات ويقعدون عن الحرب، وبعد أن تكون قيادة الجند فى أيديهم، يعهدون بها إلى بعض صنعائهم من أمراء الجيش، وهم يستولون على أعطيتهم من الملك، فلا غنى لهم عن طاعته والأخذ بناصره، فيزداد بذلك الملك ركونا إلى الرخاء، ويزداد ضعفا ويزداد قواده وصنائعه من الجيش نفوذا فى الدولة ودالة على الملك، فيطمعون فى المناصب الرفيعة، فتصير إليهم الإمارة أو الوزارة أو قيادة الجيش فى الحرب، ويصير الحل والعقد فى أيدهم،

يولون الملوك ويعزلونهم أو يقتلونهم أو يحجرون عليهم، كما فعل الترك بالخلفاء العباسيين، والانكشارية بالسلاطين العثمانيين، وجيش العبيد بالسلاطين العلويين.

ويظهر الهرم على الدولة إذا تكاثر المصطنعون، واشتغل السلطان ووزراؤه بأنفسهم عن الدولة وفسدت أمورها، ويزيدها فسادا اضطرار الملك ورجاله إلى النفقات الباهظة على أنفسهم فى سبيل الملذات، وبناء القصور، واقتناء الجوارى، والاستكثار من أسباب الترف بأى وسيلة كانت.

ويكثرون الضرائب فتنتشر المظالم، فتغضب الرعية وينقمون، ويتشاورون فيما بينهم عن فساد الدولة، ويتمنون الخلاص منها، ويترقبون فرصة للخروج من سلطانها.

أما الملك فلا يهمه يومئذ غير حفظ نفسه واستبقاء نفوذه، فينفق الأموال فى التجسس واصطناع الجند لحمايته، وكثيرا ما تنشب الفتن بين رجال النفوذ أو بينهم، وبين الملك ويتنازع الخاصة - وهم طلاب المناصب - فى التقرب من السلطان التماسا للكسب لانحصار المال هناك، ويشتد النزاع على أسباب الرزق، فتكثر الأحزاب ويصبح الأمر فوضى، فيعجز الملك عن تدبيره، وهو عاجز عن ذلك بطبيعة الحال لأنه شب محجورا عليه بين النساء والأطفال، على أن الدولة قد توفق فى كهولتها أو شيخوختها إلى ملك مقتدر يريد بها خيرا، لكن لا يستطيع ذلك لتمكن الفساد فيها، وتعويل رجالها على الارتزاق من ذلك الفساد، فيعود سعيه وبالاً عليه، كما أصاب عمر بن عبد العزيز فى الدولة الأموية، والمهتدى بالله فى الدولة العباسية، والسلطان سليم فى الدولة العثمانية...

فإذا اعتبرنا الدولة جسما حيا، كانت هذه الظواهر أمراضا فى ذلك الجسم تدل أعراضها عليها، فتكون العلة فى الرأس أو الصدر أو الأطراف، فإن كانت فى الرأس فهى فى الملك من ضعف رأى أو فساد خلق، وإذا كانت فى الصدر ففى

رجـال الدولة من طمع وانقسـام، وإذا كانـت فى الأطراف فمن ضـعف العمـال والولاة أو من جائحة أُصيبت بها المملكة.

ومعالجـة هذه الأمراض أيسر فى الحكم الدستورى مما فى الاسـتبدادى، لأن الملوك المستـبدين إنما يطلبون الـنفع الشخصى، فـإذا كانت علة الفسـاد من ضعف أخلاقـهم، فإن ذلك الضـعف يغريهم علـى التمسك بـالسيادة ولو آل أمـرها إلى خراب المملكة.

أما إذا كان الرأس سليما فيهون عليه مـعالجة سائر أسباب الضعف، فالدولة الاستبدادية يتوقف موتها وحياتها بالأكثر على الملك خلافا للدولة الدستورية.

والفرق بين الحكم الاسـتبدادى والحـكم الدستورى، أن الأول هو الشـريعة التى يحكم بهـا الملك رعاياه، والثـانى عبـارة عن القوانين التى تقـيد الرعـايا بها أحكامـه وأحكام رجال دولتـه، وبعبارة أخـرى: إن الحكومة أو الدولة قـد تكون مؤلفـة من رجل أو عدة رجـال، وبها ثلاثة أعـمال: سن القوانين، والـفصل فى الخصومة، وما هى نسبة أعضائهـا بعضهم إلى بعض، ويبين الكيفية التى ينبغى أن تجرى بها الأحكام، فـهو قيود للقوة المتسلطة، والإنكليـز هم أول من أنشأ مجلس النواب وأعطاه هذه السلطـة، ولذلك يقولون فى أمـثـال الإفرنج «إن الإنجليـز أم المجالس النيابية» والدستور لا يختص بالحكم الملكى ولكنه يتناول الجمهوريات، بل الجمهوريات أولى أن تقـيد بإدارة الشعب، وكل أمة فيها مـجالس تنوب بأصواتها عن الشعب كانت حكومة دستورية.

ويسوءنى للغـاية تغلب الاستـبداد على طبيـعة ملوك الإسـلام، مع علمهم بفائدة التقييـد بقوانين الشريعة المتعلقة بالأمور الدينيـة والدنيوية، التى من أصولها المحفوظة إخراج العـبد عن داعية هواه، وحماية حقوق العـباد سواء كانوا من أهل الإسلام أو غيرهم، واعـتبار المصالح المناسبة للوقت والحـال، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح.

ومن أهم أصولـها وجوب الشـورى، ومن الأصول المجـمع عليهـا وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ عالم بالمنكرات، ولولا تغيير المنكر ما استقام للبشر ملك- لأن الوازع ضرورى لبقاء النوع الإنسانى ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبـه على الأمة لبقاء الإهمال بحاله - فلا بد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده إما شرع سمـاوى أو قانون معقول، وكل منهما لا يدافع عن حـقوقه إن انتهكت - فلذلك وجب على علماء الأمـة وأعيان رجالها تغـيير المنكرات، فالمغيرون للمنكر فى الأمـة الإسلامية تتقيـهم الملوك كما تتقى ملوك أوربا المجالس وآراء العامة الناشئـة عنها وعن حرية المطابع - ومقصود الفريقين واحد، وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة.

قال ابن خلدون فى فصل الإمـامة من مقدمته: إن الملك لما كـان عبارة عن المجتمع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية المركبـة فى الإنسان، كانت أحكام صاحـبه فى الغالب على مـا ليس فى طوقهم، فتعسر طاعته بذلك، وتجىء العصبـية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سيـاسية مفروضة يسلـمها الكافة وينقادون إلى أحكامهـا كما كان ذلك للفرس وغـيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السـياسة لم يستـقم أمرها ولا يتم استيـلاؤها، فإذا كانت هذه القـوانين مفروضة من العـقلاء وأكابر الدولة وبصائرها كانت سياسة عقلية، وإذا كان فرضها من الله تعالى بشرع يقررها كانت سـياسة دينية نافـعة فى الدنيا والآخرة -. . . أجل نفـعها لا يتم إلا ببقـائها محـترمة بـصونها، والذب عن حـوزتها بمثل الأمر بالمـعروف والنهى عن المنكر:

فمن ثـم وجب أن نجزم أن مشـاركة أهل الحل والعـقد للملوك فى كـليات السيـاسة مع جعل المسـئولية فى إدارة المملكة على الوزراء المبـاشرين لها بمقـتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة، أجلب لخيرها وأحفظ له.

قال ستورد الإنجليزى فى تاريخه: «إن رفعة شأن الأمة الإنكليزية بلغت الغاية فى مدة الملك جورج الثالث الذى كان مجنونا وما ذلك إلا بمشاركة أهل الحل والعقد ومسئولية الوزراء لهم». . . . فتبين أن المملكة التى لا يكون لها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد خيرها وشرها، منحصر فى ذات الملك وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها.

قال المؤرخ الشهير تيراس الفرنسى عند ذكره عواقب الاستبداد وأن العمل بالرأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف - بعد ما ترجم لنابليون الأول بأوصافه الخاصة وألحقه فى السياسة بأفراد الرجال الذين جَادَ بهم الدهرُ فى القرون الماضية - إلى أن قال مخاطبا للفرنسيين: تعالوا نمعن النظر فى أحوال هذا الملك التى هى فى الحقيقة أفعالنا، فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغى أن تقاد الجيوش، ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغى أن تكون إدارة المملكة وكيف ينبغى أن يرتفع شأنها بدون خروج عن دائرة التواضع والرفق، إذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق وقناعة لا تتحمل، وربما يفضى ذلك إلى أسباب الاضمحلال كما أفضت إليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة، فبالجملة نعتبر بغلطته فنتجنبها ثم نستفيد معاشر أبناء الوطن تربية أخيرة لا يسع نسيانها، وهى أنه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد، بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما. .

إن الذى له القدرة بحيث يستطيع أن يفعل كل ما يريد معه داء لا دواء له، وهو الشهوة الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا، وإذا تقرر هذا فعلى أبناء الوطن أن يتأملوا فى سيرة المذكور ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته -

والأهم أمر واحـد وهو أن لا يطلق أمر الوطن لإنسان واحد كـائنا من كان وعلى أى حالة كان.

وقد خـتمت هذا التـاريخ المطول المستوعب لأحـوال نصرنا وانهـزامنا بهذه النصيحة بل الصيحة الصادرة عن صميـم فؤادى غير مشوبة برياء راجيا بلوغها إلى قلب كل فرنسى ليتيـقن جميعهم أنه لا يليق بهم بذل حرمتـهم إلى أحد - كما لا ينبغى لهم الإفراط فيها حتى لا تنتهك حرمتها هـ.

وفى حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تعود الشـريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته.

هذا ومن تأمل هذه الترجـمة ودرسها كـما يجب تبين له جليا كـيف كانت الرعيـة تعامل المتـرجم وهو من خيـرة ملوك هذه الدولة التى لا يزال شأنهـا ممتدا ونفوذها مستمرا وظلها وريفا، ولست متنكبا ولا مغضيا إذا قلت - ملكا من خيرة ملوك هذه الدولة - فقد مر بك كيف انزوى وتورع عن الانتـصاب لهذا الأمر مدة يبالغ فى الإلحـاح عليه فيه ويخـاطب بكل رغبة من أجله، ثم مرّ بك كـيف كان يعطى العطاء الوافر، وكيف يحسن وفادة القادم المطيع، ويحتفى بالنزيل المخلص، وكيف كـان يفزع لكل من يتوسـم فيه مقـدرة للعمل وأصـالة فى الرأى وقوة فى الحق، فيوليه الأمر ويسند إليه النظر ويشركه السلطان.

فهل كان فاعلا ذلك ومبالغا فى الغضب إذ ينتقم من أجل إخلال بالأمور أو سير للشئون على طريقة غير منتظمة أو غير عادلة، إلا خدمة لمبدأ العدالة المنشود، ورغبـة فى استـتبـاب الأمن المرغوب، وحـبا لنشـر ألوية السكينة فى كل مكان، وتعميم المساواة والحق بين جميع أفراد الإنسان.

فهل كان وهو كما مر بك يأمر بعـزل أبناء الروسى واحدًا فآخر مثلا أو آمرًا بولاية أفراد من غيـرهم وآخرين من عشيرتهم إلا قاصدًا أن يـجد فى هذا ما ساء

الظن به فى ذاك، وهل كان يتغير ويستبد ويعمل بصرامة وشدة ما فوقها من شدة ما لم تكن دسيسة تؤثر أو مكيدة تدبر أو مؤامرة تنقل. . . إلا أن إمكن أن تفرض له من غاية غير معروفة أو قصد غير مطرد وهذا ألا أراه كما لا يراه الجمهور العاقل من غيرى.

لنرجع إلى التاريخ نفسه. فهل له أن يرشدنا إلى وقت سادت فيه السكينة وعم فيه الأمن أو وقف فيه فقط دولاب الحركات والثورات وإيقاد نيران الفتن من زعمائها وأحزابها، ثم نسائله هل كان من صاحب الترجمة أن عمد إلى شىء من استبداد برأى أو سوء صنيع برعية؟ وهل كان إن انتهك حرمة أو أساء صنيعا أو تعمد قتلا وأسرف فيه ما لم يكن قد ضاق صدره واشتعلت أطراف الفتن والمؤامرات من كل ناحية؟

بل هذا ملك البلاد وهو على رأس السلطنة يضطر لتحمل إهانات شنيعة من زعانيف صعاليك بعد تجرع أنواع المضض من سوء السيرة وأنباء الفتن وحوادث الاضطرابات وآفات التفرق، ثم تزوج عليه نساؤه بدون موجب، ويؤخذ منه حريمه غصبا، ثم يوقف موقف السوقة مؤاخذا معاتبا من أنذال لا خلاق لهم كنت لا تجد بينهم لو اطلعت عليهم من لا تفرق بين دماغه وبين أرض البادية الخلاء البلقع محلا وجدبا، ثم ندعوه أمام التاريخ لحسابه على ما فرط، ولمؤاخذته على ما جنت يداه.

ومع ذلك فلست أنكر أن كانت للرجل مندوحة فى كثير من الأحيان وفى نظائر وأشباه من المناسبات والظروف عن تحمل مسئولية كثير من الوقائع والأخطار، وتجنب غير قليل من الحروب والمشاغبات، فقد كان يمكن أن يفض الكثير منها بحسن السياسة المستعمل فى غيرها، وجميل التدبير المتخذ فى نظائرها، وبذلك كانت تصان دماء وتحفظ حقوق وتقف اضطرابات عند حد.

ثم كان ذا نظر ثاقب فى الأمور، ومعرفة واسعة بأحوال شعب يتقلب فى مجالات ممتدة من الاضطراب وفقدان الثقافة وجمع الكلمة أن يحالف فى الأغلب الأكثر من وقائع الدولة وشئون الأمة، ولكن الوقت القليل كان لا ينقضى أحيانا إلا والأمر قد تجدد، والشر قد عاد وبوادر الفتنة قد أمست تجهر بأعلى صوت مولية وجهها نحو مقر لم تغادره إلا من أمد قريب، فما ظنك بمن يئول إليه أمر هذه المسئولية كُلاّ، ومن يخاطب عن هذه الوقائع طُرّا، فهل كان يجد له من غالبها مخرجا إلا ضربا بشدة، وقمعا بجميع ما أوتيه من صرامة ممكنة؟

لعل مراجع التاريخ المغربى والمتصفح بدقة وإمعان لا شأن للقصور أو الغرض فيه، يرى من ضرورة هذه الأحوال وقضاء الظروف بها ما يخفف من غلواء النقد ويبيض صحيفة من حسن القصد فى تاريخ ملكنا المترجم، مهما أملت علينا ترجمته من وقائع كلها محزن، وحوادث كلها أليم.

ثم هنالك ما لا يسع التاريخ إهماله أو غض النظر عنه من بحث لأحوال حاشية السلطان ونظر لبطانة الملك، فهل كانت هذه البطانة أو الوزارة التى لا غنى عن صلاحها وإصلاحها موفية بالغرض من وجودها فى جوار صاحب الترجمة وإعانته على خدمة أغراض الدولة ومهام الأمة؟

كلاّ وألف مرة كلا فقد مر بك متكررا معادا ما كان يحاول من انتقاء المساعد والمعين ومبالغة فى اجتناب من لا خير ولا صلاح للرعية فيه وفى ولايته، ثم ما كان يلاقى منهم من جفاء فى الطبع ولؤم فى العشرة وكفران للنعمة، وجحد للواجب وتصرف شائن خائن، كله أغراض ومطامع ذاتية لا شأن للشرف والذمة وصدق الخدمة فيها.

ومتى بربك تصلح حال أُمة أو تصلح أحوال ملك وحاشيته وأعوانه ومعينوه على تدبير الأمور كلهم عابث متمرد أو حقود مستبد أو متصرف لنفسه وغاياته،

يحسب الناس منهم صنيعا شريفا أو يرقبون عملا مفيدا، وما هو فى ذلك من المعدودين.

فكم كان يكون صلاح الرعية والملك لو استقام المشاور وأخلص الوزير، وكرم عنصر المساعد والمعين، فما إن يولى الولاية كما تقدم فى كل موضع أو يمنح الأمر أو يشرك الحكم إلا والعبث مستحكم والاستبداد منتشر، وحبل الأغراض والمطامع ممتد مجالا بعيدا.

ثم ليت شعرى وهذه حال أمة تصادف من متبوعها ما صادفت من صرامة وشدة وطأة وقمع بمختلف وسائل القوة، ثم لا يزيدها الورد إلا عطشا، ولم يكن العلاج لها إلا مثيرا ومحرضا، فهلا كان من الضرورى أن تعامل كما عاملت وتقابل بالنظير مما فعلت؟

وهل يبقى حال شعب هكذا وربك من وقت للنظر فى أحوال صلاح أو تمهيد إصلاح فأحرى نظر أحوال خارجية أو أمور تقضى بها ضرورات المدنية، وهذه السبل متقطعة والمواصلات منعدمة، والدماء تسيل، والفتن تتوالى من كل حدب وحبل، إلا من ينصدع من بين أمس الدابر والغد المنتظر.

فلعل التاريخ كان يصارحنا بما يقلل من عظيم مسئولية هذه النكبات والخطوب أن لو كنا لجريانها فى وقتها من الحاضرين أو لدراستها بأسبابها ووقائعها المحلية من المستوعبين، وهكذا التاريخ لا يسوغ أن نكتبه أو ننقله، فأحرى أن ننقده ما لم نكن لحوادثه ودقائقه قَلَّت أو جلّت من المتعللين، ولأحكامه وشواهده المأثورة من الجالبين.

وما القصد من ذلك إلا خدمة علم التاريخ وإحكام وضع مبانيه على ما تأسس من قواعد محكمة، وأصول مرتبة، وإلا ففيم التاريخ وقد حاد كاتبه عن

الحق وجانب الصواب أو أغضى عن تحقيق الحقائق وإعلان الواقع، وإن كان يهم أقرب الناس إليه وأكثرهم اتصالا به، والتصاقا بسببه.

وما أشد ما يذكرنى هذا بصنيع ذلك الفريق الجاهل المتورط الذى ظن أن التاريخ وقائع تسرد لإرضاء زيد أو عمرو، وحكايات تنقل لمجرد سواد عيون (بصرى) معجب أو كوفى فخور كلا، فالتاريخ الحكم العدل على الأشياء والأعمال، ومصادر الرجل إن خيرا كانت لهم صحفا بيضاء تبيض وجوههم ووجوه عشرتهم يجب أن يقتفى أثرهم فيها، وإلا فخزيا وسبة تكون لهم ولمن بعدهم ممن قلدهم فيها مثلا فى سوء الصنيع وشر الأحدوثة إلى الأبد.

ولقد كان جزاء عدلا أن يلقى المتعنت على التاريخ خسة، وينال حطة، ويصادف ضعة، وإلا فالحقيقة لا تحارب، وقول الواقع لا ينجى من وخزه إلا التنكب عن طريق الضلال، والإنابة إلى المثوبة وحسن الحال.

هذا وقد كانت مدة مقام المترجم بدار دبيغ عشرة أعوام، وقيل سبعة، وقيل أربعة، قالوا: وقد قتل مدة سلطنته صبرا ما يزيد على سبعين ألف نسمة، قتل منها فى يوم واحد خمسمائة وخمسين، قالوا: وقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر من النقود الذهبية والفضية والكراع والضياع والأثاث والثياب الفاخرة وغير ذلك مما أشرنا لبعضه.

مشيخته: منهم أبو محمد عبد الله المنجرة، عن والده أبى العلاء إدريس بأسانيده المتصلة فى فهرسته.

الآخذون عنه: منهم ولده أبو عبد الله محمد المتبوئ عرش الملك من بعده، أخذ عنه دلائل الخيرات.

خلفاؤه: بمراكش أبو عبد الله محمد، وبرباط الفتح أبو العباس أحمد ولداه.

حجابه: منهم عبد الوهاب اليمورى.

أطباؤه: منهم أبو اليمن عبد الوهاب أدراق.

عماله: منهم الباشا بوسلهام، وحمدون الروسى، وولده البادسى، وابن المجاطية، وبوعزة مولى الشربيل، ومحمد بن عمر الوقاش على تطاوين، وبوسلهام الغرباوى الحمادى على بنى مالك، ومحمد الحبيب المالكى الحمادى كان على سفيان وبنى مالك والخلط وطليق، وسليمان بن الرغاى، وأحمد بن على الريفى، وأبو عبد الله محمد بن على بن كنتى الزمورى، ومحمد واعزيز على البرابر وكان بينه وبين السلطان محبة ووداد كبير، حتى إن السلطان كان يناديه بيا أبت، وعبد الخالق عديل بفاس المتوفى ليلة الأربعاء ثالث عشرى ذى القعدة عام ١١٥٨، وعبد القادر عديل، وعلى بو طيب، وعبد الله بن محمد المعروبى السفيانى على سفيان، والحسن بن صالح الليرينى على فاس الأندلس.

ولما مات فى أوائل محرم عام ١١٦٢ ولى مكانه ابن عمه مسعود الليرينى، وقاسم ابن الأشهب، ومحمد الصفار، وأبو العباس أحمد الكعيدى، والباشا قاسم ابن وينون، وعبد المالك بن أبى شقرة، وأبو عبد الله محمد السلوى، وعبد النبى ابن عبد الله الروسى، فكاتبه الطيب بن حلوة فعبد اللطيف بن عبد الخالق الروسى، ومحمد بن على ويشى وعبد الله الحمرى.

ظهير السلطان مولاى عبد الله بتولية المسطاسى ناظرا عاما

قضاته: منهم أبو عيسى المهدى مرينو بالرباط، وأبو محمد عبد القادر بن العربى الكاملى بوخريص، وأبو يعقوب يوسف بن أبى عنان، وأبو القاسم العميرى، وعلى بوعنان، وأحمد الشدادى بفاس، والطالب بوعنان، والعميرى، ومحمد بن عبد السلام البيجرى، وعبد الوهاب بن الشيخ بمكناس، وعبد الواحد بوعنان بتازا وفاس.

محتسبوه: منهم بوعزة الزيزى بفاس، ثم محمد الريحانى، ثم عبد النبى المشرف، والطيب الريحانى، ومحمد بن زيان، وعبد العزيز الخلطى، ومحمد بن عبد السلام المحمودى.

نظاره: منهم التاودى المشاط بفاس، ولما توجه للحج أضيفت النظارة للمحتسب الطيب الريحانى، ومنهم السيد بلقاسم المسطاسى أسند إليه النظر فى أمور أحباس جميع المدن والبلدان والقرى والمداشر حسبما بهذا الظهير الصادر له فى ذلك، ونصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف:

«كتابنا هذا أسماه الله وأعز نصره، وخلد فى دفاتر المجد أمره وذكره، بيد خديمنا وحبيب أبوابنا الأرضى، الخير الأقرب، السيد بلقاسم المسطاسى ويتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه العميم ونصرته، أننا جددنا له به ما كان عليه من النظارة فى أمور الأحباس فى جميع الأقطار والمدن والبلدان والقرى والمداشر، وبسطنا له اليد الطولى على جميعهم بحيث لا يقصر عن البحث والتفتيش فى الأدنى والأقصى، فإن جل مهماتنا هذا الأمر الأكيد، وجعلناه العوض منا فى ذلك، فمن نازعه أو خالفه أو ناوشه فإثمه على رقبته، وإنى بفضل الله تعالى وقوته أقمته هذا المقام، على مر الليالى والأيام، فعليه بتقوى الله ومراقبته، فى

سره وعلانيتـه، وعليه بمحاسبة النظار وأهل التصـرف فى هذا الأمر حتى يترك من أراد ويولى من أراد ومنا إليـه فى التقـصير، وعلى اللـه المعول وهو حسـبنا ونعم المولى ونعم النصير، وفى منتصف جمادى الثانية عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف».

آثاره: لم يحفظ عنه من الآثـار العلمية فيـما أعلم شىء غيـر ما نسبـه إليه نسابة أهل عصـره العلامة الثبت المحرر النـقاد أبو عبد الله محـمد الزكى الشريف العلوى السجلماسى، قال فى مؤلفه فى الأنساب الموسوم بالشجرة الزكية ما لفظه: صرف همته - يعنى المترجم - فى صناعة الملحون كان طوع يديه.

ومن آثاره التى لا زالت قـائمة العـين بفاس دار ادبيـبغ الشهـيرة التـى كان أسسها واستوطن بها إلى أن وافته منيـته، وكان الشروع فى بنائها أوائل محرم عام ١١٥٤، ومن بناءاته دويرة باب الريح خـارج مكناسة، ومنهـا تنميق باب مـنصور العلج، وباب مسجده المعروف بجامع الأنوار.

ما خلفه من الأولاد: لم يعـقب غير ولدين وبنت، أما الوالدان فـهما: أبو عبد الله محمـد خليفته بمراكش، وأبو العباس أحمد خليـفته بالرباط المتوفى بفاس فى شعبان عام ١١٦٤، وأما البنت فهى السيدة فاطمة ربة الدار.

وفاته: توفى بمرض السل بدار الدبيـبغ ليلة الخميس سابع عشرى صـفر عام واحد وسبعين ومائة وألف، وتولى غسله قاضـيه أبو محمد عبد القادر بوخريص. قـال ابن الخيـاط القـادرى، ودخلنا إلى داخل الدار وقـرأنا عليـه وأخـرجناه إلى خارجها، وصلينا عليه بعد صلاة العـصر فى البراح الذى بخارجها، وإمام الصلاة عليه خطيب جامع الأنـدلس، وإمامها سيدى مـحمد بن أحمد ابن الإمـام سيدى محمد ابن شيخ الشيوخ سيدى عبد القادر الفاسى.

بعض ما قيل فيه من المديح: من ذلك قول بعض شعـراء دولته حسبما جاء فى كناشة الوزيـر اليحمـدى التى كان صاحب التـرجمة هو الـسبب فى إحيـائها بالنسخ وإبرازها إلى الوجود فهى حسنة من حسناته:

لقـد فخـر الزمـان وكـان قدمـا ... فـخـــورا بالملوك من الفـــحـول
فـقلت له وقد أبصـرت شـمسـا ... تضـىء علـى الأباطـح والتـلول
بدت بسـعـودها فى خـيـر برج ... تدوم ولا تـعـــقب بـالأفـــول
لهـــا مـولاى عـــبـــد الله نور ... سليـل المصطفى وابن الـبـتـــول
به فـافـخـر وفى مـغناه فـانظم ... فـــلا فـخـــر كـــأبناء الرســـول

وقوله:

يمينا بمن حض الملوك على الخير ... وألبـسـهم ثوب المكارم والفـخـر
كمـولاى عبد الله خـير خليـفة ... تحلى بتـاج الملك والعـز والنصـر
له همـة تعلو على هامـة العـلا ... وتسمـو به فوق السماكـين والنسر
فـلا زال منصـورا عـزيزا مـؤيدا ... ودامت لـنا أيامـــه لمدى الـدهر
وأهدى لمـولانا أجل تحـــيـــة ... يفوق شذاها نسمة العنبر الشحرى

وقوله:

كتـاب كريم جاء من خيـر مالك ... فـصـغت به تاجـا لرأس المئـالك
وقمت بأمر الضيف إذ هو واجب ... على كل ذى عقل وجوب المناسك

وقوله:

وجـددت ديوان الكرام مـــحليـا ظبـاه بـإبريز مـذاب الســبـائك
ولو كـان فى إنسـان عـينى زينة لحللتـــه منهـــا لأرضى مـــالكى
فـيـــارب زده رفـعـة وجـــلالة ليـسلك فى عليـاه خيـر المسـالك
وأبق لنـا والمسلمـــين وجـــوده ودافع به عنـا جـمـــيع المهـــالك
وصل على المولى النبى مـحمـد إمام الهدى المرفـوع فوق المسامك

وقول بعضهم:

عليك ســـلام يا ضـــيـاء العـــوالم ويا بهـجـــة الأشـراف من آل هاشم
ويا من سمـا عضبـا على كل جاهل وأصـــبح مســـرورا به كل عـــالم
وأصـبح ظل الـله فى الأرض ناظرا إلى كـل مـــــسكـين بمـقلـة راحم
ويا من كـــســـاه الله منه مـــهـــابة تذل لهـــا رغـمـا أنوف الأعـــاجم
ويا من لـه حـــزم وعـــزم وسطوة تفـــتت إرهابا قـلوب الضـــراغم
كـفـاك افـتـــخـارا أن عـزك ظاهر وجـــودك منسـى به جـــود حـــاتم
وكـون سجـاياك التى فـاح عـرفهـا ســـجـــايا الملوك الشم أهـل المكارم
لعـمـرى لقد ألقـت إليك زمامـهـا ضـروب العلا إذ كـنت أحزم حـازم
فـقـمـت على الملك المشيـد ركنه تذود لـديه بـالقـنا والـصـــــوارم
وأغناك رب الناس عن جـمع عسكر برأى مـــصـيب للعـــسـاكـــر هازم

ونفس علت فـوق السـماكـين همـة وعـــقل غـنى عن هدايـة عـــالم
فجـئت وسيل الغـرب قد بلغ الزُّبى وأسـواقـــه مـعـــمـورة بالجـــرائم
ونار الشـرور فى الفـجاج تأجـجت فطاب لأهل الـبـغى هتـك المحـارم
فـدوختـه من بعد مـا استنسـرت به بغـاة وقـــد طالت رعـاة البـــهـائم
فـــــأمـنتـنا مـن كل طـار وطارق وحـــــــصنـتنـا من كـل داه وداهم

علائقه السـياسية: وقفت لـه فى هذا الباب على معاهدة هذا نصـها بلفظها وحروفها:

بسم الله الرحـمن الرحـيم، وصلى الله على من لا نبى بعـده ثم إمضـاؤه (عبد الله كان الله له):

«هذه نسخة شـروط الصلح والسبب بين سيدنا نصـره الله السلطان الأنجد، الشريف الأسعد، سيدنا ومولانا عبـد الله بن مولانا إسماعيل قدس الله روحه فى الجنة آمين سـلطان مراكش وفاس ومكنـاسة والغرب، الإصطادوص المعظـمين فى بلادهم وهم سبعـة من قبائل الفلامنك مفـاصلين بأمر سيدنا وتفـويضه نصره الله والبشـادرات فرنصـصك ودون اليوزبوطليـر بأمر وتفويض الاصطـادوص المتاويين المذكورين مع وكيل سيدنا ومولانا نصره الله، وهو خـديمه القائد محمد لوكاس، ووكيل الاصطادوص المذكورين افرنصصك بوطلير وأخيه لويز هـ.

الشرط الأول:

انبرم الصلح وتصـحيح العهد بين سـيدنا ومولانا عبـد الله نصره الله وبين الاصطادوص المتأويين من يوم عهد الصلح يكون فيه الأمان التام، يأمن الخائف فيه الجهتين، وكلما وقع من الزمان الفايت من الكرة وغيرها فهو منسى، وهذا الصلح

دائما إن شاء الله من الجانبين ورعيتهم ومن اليوم لأمام تكون المحبة وعهد دائم بين الجانبين هـ.

الشرط الثانى:

جميع سفن الفـلامنك وسفن رعيتهم المعروفيـن للديوان المذكور سواء كانوا نصارى أو أهل ذمة من الذين تحت أيديهم إن دخلوا مرسة من مراسى طاعة سيدنا ومولانا نصره الله بقصد الترصية خيفة من البحر أو بقصد التجارة لا يتعدى عليهم أحد، ولا يعطون سـوى عشر سيدنا ومـولانا نصره الله من غير أن يخـرق عليهم أحد عادة جـديدة، والسلعة التى تبور لهم فى البلاد بعد أن كـانوا أدوا عشرها إن أرادوا يحملونها ويتراجعون بهـا حيث شاءوا، بل حيث يظهر لهم برًا وبحرًا، من غير لازم آخر يلزمـهم، بوجود سيدنا نصره الله وكمـال إحسانه، وكذلك إن ورد مركب من مراكـبهم لبلاد من بلدان طاعة سيدنا ومـولانا أدامه الله، وكانت عنده سلعة وأراد أن ينزل منها طرفًا فى تلك البلاد والبـاقى يسافر به لغيرها، نطلب من سيدنا أيده الله ألا يعتـرض أحد لذلك المركب، ولا يكرهه على نزول تلك السلعة فى البلاد التى يرضى بها، ولا يعطى إلا عشـر السلعة التى نزل فى البلاد من غير معارض له فى ذلك بوجود سيدنا ومولانا نصره الله، وكل ما كان محسوبا من آلة الحرب كـالبارود والعدة واللوح للـسفون ومـا أشبه ذلك، إن جـاء به مركب من مراكبهم بمرسة من مـراسى سيدنا نصره الله بقصد السبب فلا يلـزمهم عليه عشور بوجود مولانا وسيدنا نصره الله هـ.

الشرط الثالث:

أن جميع سفن الفلامنك التى يهيـج عليهم البحر أو يفرون من عدوهم، إن دخلوا مرسة من مراسى سيدنا ومولانا نصره الله لا يلزمهم بارود ولا مخطاف ولا غيره مما هو مـعلوم من لازم المراسى ووظائفها، بفضل سيـدنا نصره الله، وكذلك

مراكب طـاعة سيـدنا إن وردت على مرسى من مـراسى الفلامنك فى هـذه الحالة المذكورة لا يلزمهم شىء إن شاء الله هـ.

الشرط الرابع:

أن جميع سفن الفلامنك تسافر فى البـحر من غير أن يتعدى أحد عليهم فى مراكبهم فى مال ولا سلعة ولا رائس ولا بحـرى ولا راكب إن كان معهم من غير الفلامنك، إذا كـان تحت سنجق الفلمنك سواء كـانت السلعة له أو لغيـره بفضل سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الخامس:

أن جميع مـراكب سيدنا القرصانيـة وغيرها إن تلاقوا فى البحـر مع سفاين البزركـان وأراد أحدهمـا أن ينظر بصبـرط يبعث إليـها رجلين من غـير القـدافين ينظرون ذلك، ويرجع كل أحد منهم لمركبه من غـير تعدى ولا تعارض، ولا يطلع أحد منـهم للسفيـنة إلا من يجيب رائسـها، وكيف يـورى له كيف هو مبـين هذا الشرط يسرحـه، وإن سفر مركب من مراكب سـيدنا نصره الله القرصانيـة وغيرها يكون عنده بخط قـونصـوا الفلمنك المقـيم بطاعـة سيـدنا نصـره الله، فإن كـان القونصوا غائبا فتجار الفـلمنك، وإن لم يحضروا تجار الفلمنك فمن تجار النصارى المقمين بطاعة سيدنا نصره الله، وإن كان عنده ذلك يوريه الرائس ولا يتعدى عليه أحد ويسرحه فى الحين والساعة هـ.

الشرط السادس:

لا يتـعدى رائس ولا بحـرى من أهل طاعة سـيـدنا نصره الله على سـفن الفلمنك، ولا ينـزلون منهـا راكبـا من أى جنس كـان تحت سنـجق الفلمنك ولا يترامى عليه أحد هـ.

الشرط السابع:

ألا يتعدى أحد على سفاين الفلمنك التى تحرث قرصانا أو زركانا فى طاعة سيدنا نصره الله، ولا يأخذ لهم شيئا من السلعة ولا قلوع ولا غير ذلك من سائر حوايج المراكب المعلومة ولا ركابه ولا رائسه بوجود سيدنا نصره الله، ويكونون متع رءوسهم من غير أسر وأهل طاعة سيدنا نصره الله، يأخذون بأيديهم ويعينوهم إن وقع شيء من ذلك ربما تفسد السلعة أو يموت أحد من أهل ذلك المركب، فلا يضيع شيء من متاعه بوجود سيدنا نصره الله، ويدفع ذلك للرائس أو لمن له الأمر يأخذ السلعة ويعطى الأجرة لمن يعينهم، وأهل المركب يتوجهون حيث شاءوا ولا يتعرض لهم أحد هـ.

الشرط الثامن والتاسع:

ألا يأتى أحد من أهل طاعة سيدنا نصره الله ولا من طاعة الفلامنك إلى طاعة أخرى ويعمل سنجاقا غير سنجاقه، ويقرضون على من له صلحا معهم من طاعة سيدنا وطاعة الفلامنك، وكذلك أيضا بشرط الذى هو لعمالة أخرى غير الذى هو صلحا معها، وجميع سفن سيدنا نصره الله القرصانية لا تأتى لطاعة الفلمنك ولا تقرص عليها ولا على نواحيها هـ.

الشرط العاشر:

أن جميع من كان عدوا لطاعة سيدنا ويأخذ غنيمة لا يدخل بها طاعة الفلامنك يبيعها ولا غير ذلك، وكذلك من كان عدوا للفلامنك لا يدخل طاعة سيدنا نصره الله يبيع الغنيمة التى يغنمها للفلامنك، وكذلك إن كان بمرسى من طاعة سيدنا مركب من أعداء الفلامنك وكان مركب من مراكب الفلامنك بتلك المرسة السعيدة لا يتعدى عليه أحد، ولا يقربه بسوء، وإن كان مركب من مراكب

الفلامنك على سفر من تلك المرسى فلا يترك مركب العدو يسافر إلا بعد سفر الفلامنك بأربعين ساعة هـ.

الشرط الحادى عشر:

إذا أخذ الفلامنك سفينة من أعدائه وأعداء سيدنا نصره الله ودخل بها إلى مرسة من طاعته وأراد بيعها فلا يتعرض له أحد ولا ينازعه، وكلما ينزلوا من السلعة بخاطرهم فى البر يعطوا ما يلزمها من العشر من غير زيادة، وإن توقفوا على ما يقضونه من الفرشك بسعر السوق لما يأكلونه فلا يلزمهم عليه خارج بوجود سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الثانى عشر:

إن ورد مركب من قرصان الفلامنك على مراسى طاعة سيدنا نصره الله فالقونص الفلامنك يعلم به حاكم البلاد ربما يكون عنده أسير فرّ له، وإن دخله الشك وأن الأسير فرّ إلى المركب فيسأل رائس المركب هل هو هناك أم لا، ورائس المركب يقبضه له، وإن لم يكن هناك وقال له رائس المركب ما هو شىء عندى فلا يتعدى أحد على رائس القرصان ولا على القونص ولا على أحد من التجار، وإذا تحقق الخبر على ذلك الأسير وأنه هرب فى ذلك المركب من غير علم الرائس وأخفوه عنه البحرية فالقونص يكتب للاصطادوص، ويحكم فى الذى أخفاه ورب الأسير يقبض مال اليسير هـ.

الشرط الثالث عشر:

من اليوم الذى انعقد هذا الصلح لا يقع أسر على أحد من رعية الفلامنك لا نصارى ولا أهل الذمة ولا على من يكون تحت سنجاقهم، وإذا اتخذ مركب بعد ما عقد الصلح فيرجع ولا يطالبون أهله فى فدية ولا فى غيرها هـ.

الشرط الرابع عشر:

إن مات أحد من التجـار من رعية الفلامنك وترك سلعة أو متـاعا لا يتعدى عليه أحد من عمال سيدنا نصره الله ولا يأخذ من ذلك شيئا إلا إذا أوصى الهالك عليها أحدا، تـبقى فى يده سواء كان وراثه أو شريكه أو وكيله، فـإن كان حاضراً بقت بيده، وإن كـان غائبـا ولم يحضـر أو توفى القونص الفلامـنك يأخذ ذلك، ويدفعها لربابه، وإن لم يكن القـونص حاضرا فتجار الفلامنك المقـيمين فى البلاد يحزونها ويبعثونها لأربابها من غـير معارض لهم فى ذلك بوجود سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الخامس عشر:

تجار الفلامنك المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله من النصارى الفلامنك أو من أهل الذمة إذا جـاءوا بسلعة لا يعطون عشـرها إلا منها، وكذلك حـاكم البلاد إن كانت بيدها سلعة لا يكلفهم يأخذونها منه كرها إلا عن خاطرهم ورضاهم بذلك، وكذلـك رياس المراكب لا يحكم عليهم أحـد من حكام البـلاد يحملوا سلعـة فى مراكبهم إلى بلاد أخرى إلا إن رضى بذلك الـرائس، كذلك حاكم البلاد لا يتقف سفينة ولا رائس ولا بحرى، وقونص الفلامـنك وتجارهم لا يقبضهم أحد فى دين أحد إلا إذا كانوا ضامنين عليه وكذلك سـفينة الفلامنك إذا تعمل زنبطوط لا يتخذ فيه لا قونص ولا تجار، وإنما القونص يكتب للاصطادوص بش يفتشوا عليها هـ.

الشرط السادس عشر:

وكـذلك النصارى الفـلامنك وأهل الذمـة منهم إن وقعت بينهم دعـوى أو خصـام أو موت أو جرح، فـالقونص الفلامنك الذى فـى يده تولية الاصطادوص يحكم بينهم هـ.

الشرط السابع عشر:

إن كان المسلم خصم مع نصرانى فحاكم البلاد مع القونص يفاصلهم، وإن وقع أمر من نصارى الفلامنك جرحوا المسلم يرفع أمرهم لسيدنا نصره الله، وهو يحكم فيهم، وإن هرب صاحب الدعوة لا يقبض فيه أحد من تجار الفلامنك ولا القونص هـ.

الشرط الثامن عشر:

أن ديوان الاصطادوص يبعثون قونص واحدًا أو أكثر لطاعة سيدنا نصره الله للموضع الذى يريدون والقونص المذكور لا يتعدى عليه أحد فى ماله، ويستوصى به خيرا، وكذلك التجار المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله وترجمانتهم وسماسرهم يطلعون للمركب الذى يريدون لطاعة سيدنا نصره الله ولا يتعدى أحد عليهم، وكذلك يسافرون فى البر للموضع الذى يريدون من طاعة سيدنا نصره الله، وكيف يريدون دفن موتاهم لا يتعرض لهم أحد ولا يمنعهم من صلاتهم المعهودة من دينهم والقونصوات والتجار هم الذين ينظرون من يصلح بهم من السماسر والترجمانات.

الشرط التاسع عشر:

إن وقع شىء مما يوجب نقضى الحكم بحساب ما يقتضيه رأيه الرشيد، أن يعلموا بواجب ذلك، وأن يؤجلوا القونص الذى بطاعة سيدنا نصره الله أجلا مبلغه ستة أشهر، بينما يجمع القونص ماله الذى يكون مفترقا من دين أو معاملة ويرجع لبلاده هو وجميع من يكون من التجار بطاعة سيدنا نصره الله بأمتعتهم وأولادهم وأصحابهم، ولا يتعدى عليهم أحد بوجود سيدنا نصره الله هـ.

الشرط العشرون:

إن كان أحـد من جنس الفلامنك راكبا فـى مركب أعداء سيـدنا نصره الله وظفر بذلك المركب سـيدنا نصره الله لا يتعـرض أحد لذلك المركب الذى هو من طاعة الـفلامنك، سـواء كان نصرانيـا أو ذميـا ولو كان تحت سنجـق العدو، ولا يتعرض أحـد لسلعته، وكذلك إن كان أحـد من طاعة سيدنا نصـره الله راكبا فى المراكب الذين هم أعداء للفـلامنك وظفر به الفلامنك لـم يأخذ أحد شيـئا لذلك المراكب الذين هو من طاعة سيدنا نصره الله لا سلعة ولا شيئا من متاعه هـ.

الشرط الحادى والعشرون:

إن تبين على أحـد أنه نقض الصلح ويسعى فى المسائل التى تكون سـببا فى ذلك وكان نصـرانيا يعلمنا به سـيدنا نصره الله ويـحكم فيه، ويرد كل مـا أخذ، وكذلك إن فعل ذلك أحد من طاعة سيدنا نصره الله يحكم فيه ويرد كل ما أخذ، ويكون الأجل فى ذلك ستة أشهر بينما يحصل الخبر ويأتى الجواب هـ.

الشرط الثانى والعشرون:

يجعل سيدنا نصـره الله علامته المباركة بموافـقة على هذا الصلح، ويجعلوا الاصطادوص علامتهم بخط العجم فى الوقت الذى يساعدوا الهوى والريح، وهذا الصلح مبدوه من يوم الكتب بعقد صحيح، وأن يأمر سيدنا نصره الله حكام طاعته ويعرفـهم بأمر الصلح ويبينوه لهم لئـلا يتعدى أحد من كـونه لا علم له بأمر هذا الصلح المبـارك مع جنس الفـلامنك، وأن يكون كل أحـد على بصيـرة فى ذلك، وكـذلك يفـعلون الاصطادوص فى جـميع طاعـتـهم بوجـود سيـدنا نصـره الله والسلام».

٣٨٩ - عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمى الإشبيلى القرطبى المعروف بعبيد.

حاله: فقيه علامة مقرئ نحوى أديب شاعر، جوالة فى البلاد، ولد بقرطبة ونشأ بها ثم رحل وجال، ولقى الرجال، ثم قصد المغرب وتصدى للإقراء والتعليم، فأخذ عنه بمراكش ومكناسة، وأقام بتلمسان سبع سنين يقرئ بجامعها، ثم صدر إلى الأندلس فسكن أَلْمَرِيّة، ثم نزل مرسية وخطب بجامعها وأقرأ القرآن ثم انتقل منها بعد خمسين وخمسمائة.

مشيخته: أخذ القراءات عن أبى القاسم بن النخاس، وأبى الحسن عون الله ابن محمد، وأبى جعفر أحمد بن عبد الحق الخزرجى، وأبى بكر بن عياش بن مخارج لقيه بإشبيلية، وسمع الحديث من أبى محمد بن عتاب، وأخذ العربية والأدب عن أبى محمد بن متنان، وسمع بألمرية من أبى القاسم بن ورد، وأبى الحجاج بن يسعون.

مؤلفاته: منها كتاب فى قراءة ورش وقالون، قال القضاعى فى تكميل الصلة: وقفت عليه، وله كتاب الإيضاح والإفصاح، فى اختصار المصباح، وشرح مقصورة ابن دريد.

ولادته: ولد بقرطبة لتسع خلون من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولم أقف على تاريخ وفاته.

٣٩٠ - عبد الله بن حماد يعرف بابن زغبوش المكناسى النشأة والدار.

حاله: كان من أهل المعرفة والنباهة، دخل الأندلس، وسكن شاطبة، وخلف على بنت القاضى أبى عبد الله بن سعادة بعد وفاة محمد بن عاشر الفقيه سنة سبع وستين وخمسمائة، وولد له منها ابنه محمد قال الحافظ القضاعى فى

تكملته: ولا أعلم له - يعنى المترجم - رواية بعض خبره عن ابن سالم. قلت: وعبد الله هذا والده هو محمد بن حماد بن زغبوش، وهو الذى امتحنه يدر بن ولجوط فى سبعة من قرابته، وكان فقيها خيرًا قرأ بقرطبة وغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه حسبما تقدم فى ترجمته فى المحمدين.

وقد استقضى أمير المؤمنين أبو يعقوب بن عبد المؤمن بن على صاحب الترجمة على مدينة شاطبة وجزيرة شقرون، ومن ذلك الوقت استقر بشرق الأندلس بعض ذريته، ولما أسن رغب فى استيطان بلده فأسعفت رغبته فاستوطن داره بتاورا ولم يدخل قط تاجرارت المدينة الآن فيما زعموا أنفة منه لما أصيب به والده وقرابته من المحنة بالذبح التى صدرت لهم من يدر المذكور، وكان إذا أراد لقاء الشيخ محمد بن عبد الله واجاج تلقاه بالبحيرة التى تولى غراستها فى ذلك التاريخ، وكان فى بلده مكرما وجيها يزوره قضاته وطلبته وأعيانه.

وكان - أعنى صاحب الترجمة - بمدينة فاس يقرأ حين نزلها الموحدون وسنه يومئذ خمس وعشرون سنة، فتشوف فى أحد الأيام إلى الإشراف على محلة الموحدين، فخرج من مجلس القراءة وسط النهار وقد انصرف الناس إلى ديارهم والأسوار خالية إلا من حراسها فطلع السور ليطلع منه عليهم، فبينما هو يمشى على السور حدثته نفسه بالهبوط إليهم، فارتاد موضعا خاليا خفيا عن الحرس وربط عمامته فى إحدى شرافات السور وتقلد خريطة كتبه وتعلق بالعمامة، وكانت ضعيفة فلما ثقلت انقطعت وسقط فى الأرض واعتلت إحدى قدميه، وتسارع إليه الموحدون ورفعوه فى درقة ووضعوه بين يدى عبد المؤمن بن على، وأكرمه الموحدون وأحسنوا إليه، وكتب له عبد المؤمن صكًا بتسويغ ماله ومال أبيه، وأقام معهم يظعن بظعنهم ويقيم بإقامتهم مبرورا لديهم عزيزا عليهم، وكانوا يلحظون من يمت إليهم بسابقة أو هجرة، فلما نزلوا مكناسة ظهر بمحلتهم واتصل ذلك

بالوالى يدر بن ولجوط، وكان ذلك السبب فى قبضه على والده وامتحانه إياه بالذبح فيمن قبض معه من قرابته، وقد مرت الإشارة للقضية فيما أسلفناه.

وفاته: توفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فى سن الثمانين.

٣٩١ - عبد الله بن محمد بن عيسى.

التادلى الأصل، الفاسى الدار، المكناسى الإقبار.

حاله: علامة متفنن، فقيه أديب، شاعر مفلق، حسن الخط جليل القدر، له رسائل وأشعار، مع شجاعة وصرامة عرف بها، تولى قضاء مدينة فاس على عهد أبى يعقوب اللمتونى يوم السبت سادس عشر ذى الحجة سنة تسع وسبعين وخمسمائة، كما تولى قضاء بسطة وغيرها، وكان من أعدل القضاة، واستوطن مكناسة ودخل الأندلس فى آخر الدولة اللمتونية، ولقى أبا بكر بن العربى بإشبيلية، وهم بالسماع منه فصده الفقهاء للتباعد الذى كان بينهم، وكان والده أبو عبد الله من حفاظ المذهب المالكى مشاورا بفاس.

مشيخته: روى عن أبى بحر الأسدى، وأبى محمد بن عتاب، وأجازا له وهو آخر من روى عنهما بمغرب العدوة، وصحب القاضى أبا الفضل عياضا، ولقى ابن بشكوال فأجاز له ولم يعول إلا على ابن عتاب، وأبى بحر، ولم يعتمد على غيرهما، وبسببهما أخذ الناس عنه كثيرًا لانفراده بهما أخيرًا، وقيل: إنه صحب أبا بكر بن الصائغ الحكيم بألمرية.

الآخذون عنه: منهم أبو عبد الله بن حوط، وأبو عبد الله الحضرمى، وأبو الحسن بن القطان، وأبو الربيع بن سالم، وأبو الخطاب بن خليل، وأبو عبد الله الأزدى، وأبو الحسن الغافقى فى جماعة. قال ابن خليل: وكتب لى بالإجازة من مراكش.

---

٣٩١ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ٢/ ٤٢١.

شعره: من ذلك قوله مخاطبا ابن مضا.

يا غـــارســا لى ثمـــار مـجـــد سـقـيـتـهـــا العـذب من زلالك

أخـــاف من زهرهـا ســـقـــوطا إن لم يكن ســـقـيـــهـا ببـــالك

ولادته: ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وفاته: توفى بمكناسة مغربا عن وطنه سنة سبع وتسعين وخمسمائة عن سن عاليـة، وقال ابن فرتون توفى قرب السـتمائة وقـد اختل عقله من الكبر كـما فى الجذوة.

٣٩٢ - عبد الله بن أبى مدين الحاجب العثمانى.

نسبة لبنى عثمان من زواوة بجاية من البـربر، ونزلوا مصمودة الغرب بجبال وزان منها.

حاله: له مـشاركة فى الفقـه، وشعر وسط، بيـته بيت فقه وكـتابه، وثروة وحجابة، استوطن سلفه قصر كتامة، وهو أول من انتقل منهم من القصر المذكور، رحل إلى مـدينة مكناسة واسـتوطنهـا، وبرز عدلا فى سـماط عـدولها لمـعرفـته بالوثائق، وكان يخالط الرؤساء وولاة الأمر، ويقول لأصحابه: لا بد لى أن أخدم السلطان، وأدبر الدول ونستولى على الأمر، فـخرج يوما من مكناسة إلى نزهة مع جماعة من الفـقهاء أصحابه، فلما أخذوا فى أطراف الحـديث قال لهم على قوله: لا بد أن أدبر الدول، فليـشـته كل واحـد منكم مـا يريد ويطلبـه منى أعطه إياه، فطلب كل واحد منهم ما فى أمله، فطلب الفقيـه ابن زغبوش قضاء بلاده مكناسة فمكنه منها لما مكنه الله تعالى من تدبير الدول، وأعطى لبقية أصحابه ما سألوه منه فى النزهة خارج مكناسة قبل اتصاله بالملوك وفاء بالعهد ورعيا لسالف الود:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم ارتحل لمدينة فاس واستوطنها، وتعلق بالحاجب الكاتب صاحب العلامة محمد بن محمد الكنانى حاجب يعقوب بن عبد الحق المرينى ورسوله فى أسفاره وكاتب علامته، فاختصه الحاجب الكنانى لنفسه يعلم أولاده مع أولاده الوزير عمر ابن الوزير السعود بن خرباش الحشمى، فلما علم أولاد الحاجب الكنانى القرآن وكان من أولاده الفقيه العالم الحافظ ذو الوزارتين أبو المكارم منديل بن الحاجب الكنانى، طلب عبد الله بن أبى مدين من الحاجب المذكور أن يدينه من الخدمة بدار السلطان يعقوب بن عبد الحق، فقدمه يكتب علف الخيل وجعل له على ذلك مرتب تلك الخطة وهو ثلاثون دينارا فضية فى كل شهر.

ثم طلب منه بعد ذلك بمدة أن يرقيه، فقدمه يكتب البطائق بحضرة يعقوب ابن عبد الحق فكتبها مدة إلى أن مات الحاجب الكنانى، وولى مكانه أخوه سعيد ابن محمد أبو الطيب، ثم مات أبو الطيب فولى مكانه محمد المدعو حمو بن أبى الطيب، فتخلف وخرج عن خطة الكتابة وأخذ فى الفروسية والصيد وضيع الخدمة السلطانية، ولزم ابن أبى مدين القعود فى مشور السلطان يكتب الصكوك من أول النهار إلى آخره، فشكر له السلطان ذلك ثم زاحم به السلطان حمو الكنانى، وأطلق يديه على العلامة إلى أن عزله عنها وثبت المترجم فيها - وبقى الكنانى إلى أن أدرك على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق وقتل فى خدمته بالقيروان فى عام خمسة وسبعمائة - فامتاز ابن أبى مدين بالعلامة عند يعقوب بعد أن شاركه فيها إدريس المخزومى، ويحيى المليانى، ومحمد العمرانى.

ثم تخلصت له العلامة والحجابة وتدبير الدولة مدة دولة يعقوب، ودولة ولده يوسف، ودولة عامر بن عبد الله بن يوسف، ودولة أخيه أبى الربيع سليمان، وأبو الربيع هو الذى قتله.

والسبب أن الحاجب خليفة بن إبراهيم ابن رقاصة اليهودى زاحمه فى حجابة أبى الربيع، وكان المترجم لا يفصل شيئا إلا عن إذن خليفة ومشورته، ثم إن خليفة ابن رقاصة اليهودى افتعل براءة مزورة ونسبها إلى جارية من جوارى السلطان تعلم فيها المترجم أنها تحبه، وأعطاها له اليهودى معنونة عند انصرافه إلى داره، وأمره أن يجعلها فى جيبه، وأن لا يقرأها إلا بعد وصوله لداره ففعل، فعندما جعلها فى جيبه قال لأبى الربيع خبرها فامتعض أبو الربيع لذلك، وأمر عنصال قائد النصارى بقتل ابن أبى مدين فقتله عند قبر أبى بكر بن العربى.

ثم فحص أبو الربيع عن الحكاية فوجدها مزورة، وأحضر كاتبها بين يدى السلطان وأخبره أن اليهودى أمره بكتب الرسالة عن إذن الجارية وذلك من غير أن يعلم الكاتب أن الجارية لأبى الربيع، وإنما قال له: إنها من أهل الزنى، وأنها تحب الاجتماع معه، فطلبت من اليهودى أن يكتب لها ذلك الكتاب عن إذنها فطلب اليهودى منه كتب ذلك، فكتبه خوفا من سطوته ومكانته عند الأمير، فأمره الأمير إذ ذاك أن يكتب بيده وهو ينظر ليزداد يقينا ففعل، وقوبل الخط بالخط والأمير ينظر فوجد الخط واحدًا، وتيقن السلطان اختلاق اليهودى وبهته، فاشتد غيظه عليه وعظم النكير عليه، وصعب عليه ما فعل، وندم حيث لا ينفع الندم، وأمر بقتل اليهودى اللعين فقتل من يومه، بعد أن كان هذا اليهودى بلغ فى الحجابة غاية يقصر عنها الوصف، أورد ترجمته ابن الأحمر فى تأليفه فى بيوتات أهل فاس.

الآخذون عنه: منهم ذو الوزارتين الحافظ أبو المكارم منديل الكنانى.

٣٩٣ - عبد الله بن الحسن اللخمى عرف بابن الأصفر.

حاله: وصفه تلميذه الإمام أبو عبد الله محمد بن جابر الغسانى فى شرحه على منظومة التلمسانى فى الفرائض: بالشيخ الفقيه الأعدل، وذكر عنه أنه توجه إلى السلطان أبى العباس المرينى فى طلب حسبة مكناسة، فعسر عليه أمرها فنظم:

يا باسط الرزق كلَّ السعى والطلب وأنت لو شئت هان الأمر والسبب

لكن رجوتك فى رزق تيسره من حيث لم أحتسب أو حيث أحتسب

شعره: أنشد أبا عبد الله بن جابر الغسانى لنفسه:

يا من لديه مفاتح الأرزاق وله المشيئة والدوام الباقى

كثر التفاتى للخلائق شاكيا وحقيقة الشكوى إلى الخلاق

فترددى فيما لديك إلى الورى عجز وقد عجزوا على الإطلاق

لكن بسطت رجائى بسط مؤمل متوسل لك باسمك الرزاق

فى عطفة الملك المؤيد أحمد ذى الخلقة الحسنى وذى الأخلاق

٣٩٤ - عبد الله بن حمد - بفتح الحاء والميم من غير ألف - من بيت بنى حمد، أحد بيوتات فاس الشهيرة.

حاله: فقيه عالم عامل صالح، ولى كامل فالح، متواضع حسن الخلق، متبرك به حيا وميتا، آية الله فى الزهد والورع والعبادة واتباع السنة، له مناقب كثيرة، وكرامات ظاهرة شهيرة، ارتحل من فاس للشرق، ولقى خيار المشايخ، فأشار عليه بعضهم باستيطان مكناسة.

قال العلامة الحافظ سيدى العربى بن يوسف الفاسى فى تقييده فى العقوبة بالمال: وقد سمعنا مشايخ فاس يحكون عمن قبلهم أن الشيخ العالم الولى سيدى عبد الله بن حمد دفين خارج مكناسة الزيتون، سار بركب إلى الحج والتزموا التزاما يأخذونه ممن يغتاب منهم أحدًا، فجمعوا من ذلك مالاً وافرًا واجتازوا بتونس، فسألوا الشيخ ابن عرفة عن ذلك فأفتاهم بأكله هـ، أى لأن ذلك ليس من

٣٩٤ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ٢/ ٤٢٤، درة الحجال ٣/ ٥٣، الروض الهتون - ص١١٤، كفاية المحتاج ١/ ١٧٣، نيل الابتهاج ١/ ٢٤٧.

باب الإلزام وإنما هو من باب الالتزام، التى يقال فيها ادخلوها بسلام، وفيما جمعه أبو زيد الفاسى من تقرير والده على البخارى بعد كلام: وليس منه ما وقع لأصحاب الشيخ سيدى عبد الله بن حمد حين توجههم إلى المشرق، وأنهم تعاقدوا أن من لم يحضر الجماعة فعليه كذا، ومن اغتاب أحدًا فعليه كذا حتى جمعوا من ذلك مالاً كثيرا فتوقفوا فيه، فلما مرّوا بابن عرفة أجاز ذلك لأن هذا بموافقتهم هـ.

وكان المترجم مجاب الدعوة، وكان وزير وقته يعظمه جدا ويقضى له حوائج الناس حتى أفسد بعضهم نية الوزير فيه، فصار لا يقضى له حاجة فبحث عن سببه فذكر له خبر الرجل، فقال الشيخ منجلى فى منجله على كلام العامة ثم قال: اللهم خذه من حيث اطمأن، ثم قدر الله أن ذكر له الوزير شيئا من سر السلطان وخاف أن ينمه عليه فأمر بذبحه فجأة.

ومن مآثره الخالدة التالدة أحباسه الوافرة على الضعفاء والغرباء والمنقطعين وذوى العاهات، التى لا زالت تجرى عليهم من محصولاتها الجرايات مياومة ومسانهة.

وقد ترجم هذا الشيخ الإمام صاحب درة الحجال، وجذوة الاقتباس، والسودانى فى الديباج وكفاية المحتاج، والإمام ابن غازى فى روضه وفهرسته، والحافظ أبو زيد الفاسى فى بيوتات فاس، وغير هؤلاء.

قال أبو زيد الفاسى: إنهم من فريق من البربر وإنهم بيت علم وثروة هـ.

وقال فى الروض الهتون: له بيت حسب بفاس، كان ارتحل منها للمشرق[1] ولقى الأخيار من المشايخ[2] هـ.

---

(١) فى الروض الهتون: «للشرق».

(٢) الروض الهتون - ص١١٤.

ويوجد فى لوح خشب منقوش ملصق بجدار من جدرات قبة ضريح صاحب الترجمة ما لفظه بعد البسملة: هذا ضريح العارف بالله الولى الأشهر سيدى ومولاى عبد الله بن حَمَد الشريف الحسنى، نفعنا الله به، ثم ذكر سنده الآتى فى مشيخته.

قلت: ولعل معتمد شيخنا أبى عبد الله محمد بن جعفر الكتانى فى سلوته فى الجزم بكون المترجم شريفا حسنيا، هو ما فى ذلك اللوح، وهو ليس بشىء، كيف وقد ترجمة غير واحد من المحققين النسابين ولم يشر واحد منهم لكونه حسنيا، بل وقع التصريح ممن يعتمد ويرجع لقوله بأن بيت بنى حمد الشهير بفاس الذى هو منه بربر، ومن نمط ما فى اللوح المشار له ما صرح به العارف الكامل الشريف المولى عبد القادر العلمى فى بعض أزجاله الملحونة فلا تغترر به، ومعلوم أن كل فن يرجع فيه لأهله، ورب البيت أدرى بما فيه، والشرف لا يثبت شرعا بطريق الكشف.

مشيخته: أخذ عن سيدى على وفا، عن والده سيدى محمد، عن سيدى داود الباخلى، عن سيدى أحمد بن عطاء الله عن أبى العباس المرسى، عن أبى الحسن الشاذلى، عن مولاى عبد السلام بن مشيش، عن سيدى عبد الرحمن المدنى، والشيخ تقى الدين الفقير، عن الشيخ فخر الدين، عن الشيخ شمس الدين محمد، عن الشيخ زين الدين محمد العروسى، عن الشيخ أبى إسحاق إبراهيم البصرى، عن الشيخ أبى القاسم أحمد المروانى، عن الشيخ أبى محمد سعيد، عن الشيخ سعد، عن الشيخ فتح السعود، عن الشيخ سعيد الغزوانى، عن جابر بن عبد الله الصحابى، عن سيدنا ومولانا الحسن، عن جده سيد المرسلين ﷺ، هكذا هذا السند فى اللوح المشار له.

الآخذون عنه: منهم: الإمام القَوْرى، وابن الفتوح دفين روضته المترجم فيما مر، وأبو زيد القرمونى وجماعة.

وفاته: توفى بمكناسة الزيتون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة على ما فى الجذوة والدرة واللوح المشار له فى جدار ضريحه، وقال الونشريسى فى وفياته: عام واحد وثلاثين هـ، وإلى الرمز لوفاته أشار صاحب الإعلام بلفظ أظلا من قوله.

موت الرضا ابن حمد أظلا به الشجا علينا فى (أظلا)

وضريحه مزارة شهيرة مقصودة للتبرك، مجربة لإجابة الدعاء خارج باب البرادعيين أحد أبواب الحضرة المكناسية.

٣٩٥ - عبد الله بن العريف.

حاله: فقيه عالم، عدل رضى، كان مجتهدا فى طلب العلم، ورحل لفاس وأخذ عن الأستاذ أبى زيد الجادرى مقصورة شيخه أبى زيد المكودى شارح ألفية ابن مالك فى النحو المتوفى بفاس عام واحد وثمانمائة، وموضوع هذه المقصورة مدح الجناب النبوى، وقد نكت ناظمها فيها على حازم وابن دريد حيث أخليا مقصورتيهما من مدح المصطفى ﷺ، الذى هو كنز كل ربح وغنى، وتحتوى هذه المقصورة على مائتى بيت نثنية وأربع وتسعين بيتا مطلعها:

أرقنى بارق نجد إذ سرى يومض ما بين فرادى وثنى
أهبنى إذ هب منه موهنا ما سد ما بين الثريا والثرى
فيا له من بارق ذكرنى من الهوى ما كنت عنه فى غنى
أثار شوقا كان منى كامنا بين ضلوع طال ما بها ثوى
فكان قلبى المجتوى إذ هاجه كالزند إذ أوراه مور فورى
وسح سحب مقلتى فما بقى نوع من الدمع بها إلا همى
ما كنت أدرى قبل أن أنفدته أن البكا يمنعنى من البكا

إلى أن قال:

مقصورة لكنها مقصورة على امتداح المصطفى خير الورى
ما شبتها بمدح خلق غيره لرتبة أحظى بها ولا جرى
فاقت علاء كل ذى مقصورة وإن هم نالوا الأيادى واللهى
فحازم قد عد غير حازم وابن دريد لم يفده ما درى

وروى عنه وعن غيره غيرها، وظهرت نجابته، إلا أنه اخترمته المنية فى صغره كما اتفق لمعاصره أبى الفضل ابن المجراد بمدينة سلا، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ذكره ابن غازى فى روضه من جملة علماء حاضرتنا المكناسية وفضلائها قال: ولم أدرك هذا الفاضل، وقد كانت بيننا وبين نجله القاضى الأرضى الأعدل أبى عبد الله محبة ومؤاخاة، وكان له حسن عهد ما رأيته لغيره رحمه الله هـ.

مشيخته: أخذ عن الإمام المحدث الميقاتى أبى زيد عبد الرحمن بن مخلوف الجاردى المولود سنة ست أو سبع وسبعين وسبعمائة المتوفى بفاس سنة ثمان عشرة وثمانمائة، وقيل سنة نيف وأربعين، وقيل تسع وثلاثين والله أعلم، وأخذ عن غيره من شيوخ فاس ومكناس وقد غابت عنى وفاته حال الكتابة.

٣٩٦ - عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن معطى العبدوسى - بفتح العين وضمها - الفاسى المكناسى.

قال صاحب التعلل برسوم الإسناد: فهو - أى المترجم - مخضرم فاسى مكناسى.

---

٣٩٦ - من مصادر ترجمته: توشيح الديباج - ص ٩٥، الضوء اللامع ٥/ ٦٧، كفاية المحتاج ١/ ١٧٥، نظم العقيان - ص١٢٢، نيل الابتهاج ١/ ٢٤٩.

حاله: إمام فقيه، عالم صالح، محدث حافظ بارع، كامل المشاركة، شيخ لجماعة الفقهاء والصوفية، انتفع به خلق فى العلمين، وأمات كثيرا من البدع، وبذل النصح للأمة، وأقام الحدود والحقوق، أكثر علمه فقه الحديث، حفظ مختصر مسلم للقرطبى فى كل خميس خمسة أحاديث، كان أبوه يعطيه عليها درهما، وكان يشترط العزل فى النكاح فرارًا من الولد لفساد الزمان، وكان لا يفارق كمه الشمائل، وكان يعمل الخوص ويعطيه رجلا لا يعرف أنها له يبيعها ليتقوت بثمنها فى رمضان، وكان لا يدخر شيئا حتى إنه لما توفى لم يوجد عنده فى تركته غير برنس ودراعتين، وحسبوا ما كان يدخل عليه مع ما كان ينفقه فوجدوه أكثر من مدخوله.

ولى الفتيا بالديار المغربية، وانتهت إليه الرياسة فيها، نقل الونشريسى فى معياره جملة صالحة من فتاويه، وتولى فى آخر أمره خطابة جامع القرويين بفاس، ومناقبه كثيرة، قال فى نيل الابتهاج: جمع فيها بعض أصحابنا تأليفا ذكر فيه كثيرًا. هـ. وكان راسخ القدم، آية فى الحفظ، قطبا فى السخاء، إماما فى نصح الأمة محبا فى الصالحين، معظما آل البيت. قال فى الدر النفيس: وكان يعظم الإمام إدريس بن إدريس ويزوره، وهو الذى أمر بكتب ما على المشهد الذى على قبره والثناء على شرفه.

مشيخته: أخذ عن والده ومن فى طبقته من فطاحل شيوخ وقته.

الآخذون عنه: منهم ابن آملال، والقَوْرى، وأبو محمد الورياجلى، وخلق.

مؤلفاته: منها الفتاوى المشار لها إلا أنه لم يجمعها فى ديوان، ونظم فى شهادة السماع.

وفاته: توفى فجأة وهو فى صلاة المغرب فى جمادى الثانية، وقيل ذى

القعـدة سنة تسع وأربعين وثمـانمائة، ورمز لوفـاته صاحب الإعـلام بحروف لفظ خرطم من قوله:

موت الرضا العبدوسى عبد الله فى (خـرطم) المـمات كل سـاه

٣٩٧ - عبد الله بن محمد اليَفَرْنى.

الشهير بالمكناسى - نسبة لمكناسـة الزيتون - كما صرح بذلك ابن غازى فى الروض فى فريق المترجم قائلا: ولها ينسبون.

حاله: فقيه علامة، فرضى جليل حيسوبى، كان قائما على كتاب الحوفى.

وفاته: توفى بمدينة فاس سنة ست وخمسين وثمانمائة.

٣٩٨ - عبد الله الخياط.

دفين جـبل زَرْهُون، الولى الشهـير ابن ابراهيم بن عبـد الله بن إبراهيم بن أحمـد بن إبراهيم، ينتهى نسبـه على ما فى جواهر السـماط وغيـره، إلى العارف الشهير سيدى أحمد الرفاعى الشريف الحسنى.

حاله: فقيه علامة، مدرس نفاع، كـثير الاتباع للسنة وحضور مجالس العلم والحض على التعليم، من كبـار مشايخ الصوفية المـربين الصادقين، الذين نفع الله بهم، كان له أحوال سنية، وأفـعال سنية، وشعائر مرضية، ظاهر الاسـتقامة على سنن السلف الصـالح وهديهم، يدل على الله بحاله ومـقاله، أَظهـر الله على يده كرامات دالة على صحة ولايته، وصفاء طويته، وتنوير سريرته.

وكانت له زاوية عظيمة لإطعام الطعام لم يكن لأحد مثلها فى عصره، وكان موئلا لأهل العلم والدين، وموردا للضـعفاء والمساكين، وكان يربى أصـحابه كما

---

٣٩٧ - من مصادر ترجمته: لقط الفرائد فى موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٧٦١.

٣٩٨ - من مصادر ترجمته: دوحة الناشر فى موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٨٥٩.

يربى المعلم الصبيان، ويحضهم على الصلاة فى وقتها، عالى الهمة، ممتع المجالسة، طيب المؤانسة، كامل العقل، سديد الرأى، جميل المعاشرة، ينزل الناس على قدر منازلهم، مراعيا للصحبة حق المراعاة وأكملها.

دخل مكناسة الزيتون فى سن الاحتلام مع ابن خالته سيدى عمر الخطاب دفين جبل زرهون، وكان يقرأ القرآن معه بها فى مكتب واحد على مؤدب واحد، ثم دخل لفاس، ولقى علماءها، ثم خرج للسياحة فلقى كثيرا من المشايخ، ثم ذهب لزرهون بإذن من شيخه سيدى أحمد المليانى، وطاف البلاد فى مقدمه، فدخل مراكش، ومَرّ بدكالة، فتادلا، ثم استقر بمكناسة الزيتون، وصحب الشيخ محمد بن عيسى الفهدى المختارى، وكانت بينهما محبة عظيمة، وموالاة كبيرة، ثم رحل لجبل زرهون، واشتغل بعبادة ربه، وتجرد لإذايته أهل القليعة من الزراهنة حتى الصبيان منهم، ثم انتقم الله منهم بدعائه عليهم، واشتهر أمره وطار صيته، وأقبل الناس عليه من كل ناحية حتى كان بزاويته ما ينيف على الألف من حملة القرآن العزيز، وكانت زاويته آهلة بنشر العلم وبثه فى صدور الرجال آناء الليل وأطراف النهار.

ومن كلامه رضى الله عنه: واعلم أنه لا يسمى العارف عارفا وله دعوى، ولا يسمى المحب محبا وله شكوى، ولا يسمى الموحد موحدًا وله اعتراض، ولا يسمى السالك سالكا وله اختيار، ولا يسمى المريد مريدا وله إرادة، من لم يضبط المحسوسات، لا يقدر على ضبط المدسوسات، إذا رأيت السالك لا يفرق فى سلوكه بين الاستقامة والاعوجاج، فكفى بجهله دليلا على الاستدراج. وله كلام عال نفيس فى الطريق، وقد أُفردت ترجمته بالتأليف.

ودعى بالخياط لمسحه بيده المباركة على رجل من خدام السيد أحمد المليانى كان يستقى له الماء، فاتفق أن ضربته بقرة أحدثت فى جسده فتقا فالتأم ذلك الفتق

بمجرد وضع يد المترجم عليه كرامة له رضى الله عنه، وذلك بإذن من شيخه سيدى أحمد بن يوسف الملیانى المذكور، إذ قال له لما حدث بخديمه ما ذكر خيطها له يا سيدى عبد الله بن إبراهيم الرفاعى: الله يرفع مقامك على جميع الأشياخ الحاضرين، فدنا منه، ومسح بيده المحل المصاب، فقام الرجل من حينه ليس به شىء، أفاده فى جواهر السماط.

مؤلفاته: منها الفتح المبين، والدر الثمين. فى فضل الصلاة والسلام على سيد المرسلين، وقفت عليه بخزانة وزان عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف، فى جزء وسط.

مشيخته: أَخذ عن السيد الحسن بن عمر أجانا، وأحمد بن يوسف الملیانى المتوفى فى العشرة الثالثة بعد التسعمائة بمليانة، وقبره مزارة شهيرة ثَمّ.

أما الطوائف المبتدعة التى تنسب إليه المعروفة باليوسفية فليسوا على شىء من أحوال الشيخ، بل هم مارقون من الدين بمعزل عن سبيل المهتدين، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

الآخذون عنه: منهم الشيخ الصالح الناصح أبو الطيب بن يحيى اليحياوى دفين ميسور المتوفى فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وتسعمائة كما فى مرآة المحاسن، ومنهم السيد محمد فتحا العائدى دفين خارج باب الفتوح أحد أبواب مدينة فاس المتوفى فى شهر رمضان عام أربعة وثمانين وتسعمائة، ومنهم أبو عمران موسى بن على، دفين زرهون وخلق.

ولادته: ولد بقابس سنة تسع وثمانين وثمانمائة.

وفاته: توفى مسموما سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته الشهيرة من جبل زرهون.

٣٩٩ - عبد الله بن إبراهيم بن الجندوز.

ابن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد فتحًا بن بهاء الدين بن الحسن بن الفضيل بن عبد الواحد بن محمد فَتْحًا بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن على بن عيسى بن إبراهيم بن محمد فَتْحًا بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسن المثلث بن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا على كرم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء البتول رضى الله عن جميعهم.

هكذا وقفت على عمود هذا النسب فى نسخة شجرة نسب والد المترجم عليها تصحيحات جماعة من الأعلام، منهم: القاضى محمد الغرناطى، وأبو وكيل ميمون الفخار، وأبو وكيل ميمون الفخار، وأبو القاسم بن نعيم وبعد الكل ما نصه: الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، أعلم بخطوط السادة عام عشرة وألف الإمام العلوى والسلطان الحسنى والجانب العالى بالله مولاى عبد الله بن مولاى زيدان ابن أمير المؤمنين أحمد الذهبى، كان الله له ولوالدية فى الدارين آمين.

حاله: نشأ فى حجر والده بجزولة من سملالة بالسوس الأقصى على ما فى الشجرة المشار لها، وكان من أهل العلم والدين والخير والصلاح والفضل، صرفه الله تعالى فى الجن فكان كل من استجار به ممن به مس الجن يعجل الله شفاءه فشهر بذلك، وأقبل الناس عليه، وأذعنوا لفضله، وعلموا مكانته عند مولاه، ولا زال ضريحه إلى الآن قرب بنى عمار أحد مداشر جبل زرهون مقصودًا عند العوام والخواص لذلك، وهو مرهم لذلك الداء قاطع.

وبعد وفاة والده رضى الله عنه، وذلك عام أربعة وتسعين وثمانمائة، انتقل إلى محروسة فاس بقصد قراءة العلم، فأقام بها اثنى عشرة سنة، ثم توجه لزاوية زَرْهُون بقصد زيارة مولانا إدريس الاكبر رضى الله عنه وأرضاه، فأقام بها أربعة

أشهر وخمسة عشر يوما، ثم ندبه بعض تلاميذه للخروج معهم لمحلهم حيث مدفنه الآن، فلبى دعوتهم واستقر به النوى هنالك، ولم يزل مقيما ثَمَّةَ، إلى أن نقله الله إليه، ولم يعقب.

وفاته: توفى سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، وضريحه بالمحل المذكور بجبل زَرْهُون من أشهر المزارات المقصودة للزوار، ينسل إليها الناس من كل حدب إلى الحين الحالى.

٤٠٠ - عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبود بن على بن عبد الرحمن بن أبى العافية المكناسى الشهير بابن القاضى.

حاله: فقيه علامة، يستظهر مختصر خليل والرسالة، والألفية عن ظهر قلب.

مشيخته: أخذ عن أبى بكر السراج المولود سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، المتوفى بفاس عام سبع وألف، وعبد الواحد اليحمدى المتوفى سنة ثلاث وألف، وأبى العباس القدومى، وأبى عبد الله بن مجبر المولود سنة ثمان وتسعين - بتقديم المثناة - وثمانمائة، المتوفى فى المحرم سنة خمس وثمانين وتسعمائة وغيرهم.

وفاته: توفى بمدينة فاس سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

٤٠١ - عبد الله مولى الرئيس الأوحد أبى عثمان سعيد بن حكم[1].

صاحب مَيُورْقةِ بفتح الميم وضم الياء المثناة تحت وسكون الراء بعدها قاف مفتوحة فتاء.

---

٤٠٠ - من مصادر ترجمته: لقط الفرائد فى موسوعة أعلام المغرب ٢/ ٩٣٧.

٤٠١ - من مصادر ترجمته: رحلة العبدرى - ص ٢٨٠.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «حكيم» وصوابه من ملء العيبة ٢/ ٣٢٩، ورحلة العبدرى - ص ٢٨٠.

حاله: فقيه علامة، راوية محدث، وصفه العبدرى فى رحلته بالفقه والحديث والاهتمام بالعلم والاعتناء بالرواية، قال: وقد وقفت على فهرسة شيوخه وقد شاركته فى بعض شيوخه الذين ذكرهم، قال: وقد كان فى أملى الاجتماع به ولم يقض له به هـ[1].

وقد كان بقيد الحياة سنة ثمان وثمانين، إذ سفر العبدرى كان فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من التاريخ المذكور حسبما أفصح بذلك العبدرى فى رحلته المنقول عنها.

٤٠٢ - عبد الله بن على المعروف بالحجام الصبيحى.

دفين جبل زرهون.

حاله: شيخ صالح حسن الأخلاق متحمل أذى الخلق، وكانت له زوجة سيئة الأخلاق تؤذيه جدا، فقال له بعض أصحابه هلا طلقتها؟ فقال له: لو فعلت لابتلى بها مسلم غيرى.

وله أتباع كثيرون، ونية صالحة، ومعتقد صحيح، وأخلاق حسنة، ودين متين، مقصود للزائر، مزدحم للتسليم عليه، مشهور البركة فى الديار المغربية، صاحب كرامات ظاهرة، وأحوال خارقة، من ذلك أن رجلاً جاء لزيارته وهو لا يعرفه فوجده فى سفح الجبل فقال له وهو لا يعرفه: أين سيدى عبد الله الحجام؟ فقال له الشيخ: وما حاجتك به؟ قال: جئت أزوره لوجه الله تعالى، فقال له الشيخ: والله لا تطلع إليه إلا محمولا على ظهرى حيث كان قصدك زيارته لله تعالى فقط، فحمله على ظهره فلما بلغ به داره وعرفه نفسه وتكلم معه، قال: يا سيدى نريد منك أن تكلم حاكم البلاد فى مسألة كذا، فقال له الشيخ: قد خدعتنى، والله لتردنى على ظهرك إلى الموضع الذى حملتك منه، وكان المترجم

(١) رحلة العبدرى - ص ٨٠.

٤٠٢ - من مصادر ترجمته: نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٣/ ١٠٦٤.

جسيـما فحمله إلى ذلك الموضع. قال فى الصـفوة بعد إيراده هذه الحكاية: هكذا رأيت الحكاية بخط شيخنا الفقـير الصوفى أبى عبد الله محمـد بن عبد الرحمن، ويقال: إن ذلك وقع للزائر مع بعض قرابة الشيخ، والله أعلم.

مشيخته: أخذ عن سيدى عمر الخطابى دفين جبل زرهون عن التباع.

وفاته: توفى عـام واحد بعـد الألف، ودفن على رأس مدشـر زاوية مولانا إدريس الأكبر المعـروف الآن بخبير من جـبل زرهون، وبنيت عليه قبـة، وضريحه إلى الحين الحالى من أشهر المزارات المقصودة للتبرك بها.

٤٠٣ - عبد الله الجزار.

دفين الحضرة المكناسية.

حاله: سمعت من غـير واحد أنه كان من كمال العارفين المتـبرك بهم أحياء وأمواتا، وأن الدعاء بضريحـه جربت إجابته مرارا، قال فى حـقه صاحب جواهر السماط ما لفظه: كـان رحمه الله ورعا سنيا، وكان فى ابتـداء أمره جزارا، وكان يتورع فى البيع والشـراء، فلا يشترى الغنم إلا من قوم عـرف طيب مكسبهم، ثم يذبحهـا فيبـيعهـا بأرجح ميـزان، وما فضل له من الربح يذهب بـه لزاوية الشيخ الخياط - يعنى شيخه سيدى عبـد الله المترجم قبل - فيفرقه على الفقراء، ثم ترك بيع اللحم ولازم الشيخ الخياط إلى أن كان منه ما كان هـ.

ولم أقف على زائد يتعلق بترجمته غير ما هو منقوش فى الخشب الذى على ضريحه بخط بارع، أخذت فى مناولته يد البلى نقلته هنا صونا له من الإتيان على باقيه، وغير ما هو منقـوش فى لوح خشب أيضا ملصق بالجدار ثمة، ودونك لفظ ما هو منقوش فى الخشب الذى على الضريح:

الحـمـد لـله العلـى البـارى ملك المـلوك وفـاتح الأسـرار

ثم الصـلاة على النبى مـحـمـد سـر الوجـود ومنبـع الأنوار

وعلى الأفاضل آله وأصحابه أهل الكمال القادة الأخيار

هذا ضريح سامى المقدار من قد شاع فى الآفاق والأقطار

قف ضارعا متذللا تلق المنى تكف النوائب تحظ بالأوطار

إن الوقوف ببابهم أصل الغنى ما فى وقوفك ساعة من عار

وإذا قصدت لمثل عبد الله ذا فاقصد وسل مولاك بالجزار

وبشيخه والطائعين لربهم أهل التقى فى حضرة ووقار

كم حاجة قضيت لمن قد أمه والواردين ببحره الزخار

(١) كافيا فكاك ماسور من الكفار

فعليه منى ألف ألف تحية كالمسك نسمته مع الأزهار

(١) من هجرة المختار

مشيخته: فى اللوح الخشبى الملصق بالجدار المشار له، أنه أخذ عن الحارثى بن موسى بن خشان (كذا) عن عبد الله موسى بن على مولى آية رأس، عن على بن قاسم الدكالى، عن موسى بن على مولى الصخرة، عن الشيخ الكامل محمد بن عيسى الفهدى المختارى، عن أبى العباس الحارثى، عن سيدى محمد بن سليمان الجزولى، عن سيدى عبد الله أمغار الشريف، عن أبى عثمان سعيد الهرتنانى، عن أبى زيد عبد الرحمن الرجراجى، عن أبى الفضل الهندى، عن عنوس البدوى، عن الإمام القرافى، عن أبى عبد الله المغربى، عن أبى الحسن الشاذلى، عن مولانا عبد السلام بن مشيش، عن أبى زيد عبد الرحمن المدنى، عن تقى الفقير، عن فخر الدين، عن أبى الحسن، عن شمس الدين، عن زين الدين

(١) فى هامش المطبوع: تلاشى أصله.

القزوينى، عن إبراهيم البصرى، عن أبى القاسم المروانـى، عن سعيد، عن سعد، عن فتح السعود، عـن سعيد الغزوانى، عن جابر، عن سيـدنا ومولانا الحسن بن على رضى الله عنهما وأرضاهما وعنا بهما آمين عن رسول الله ﷺ وشرف وكرم هـ.

وقد أغـفل أخذه عن سيـدى عبد الله الخيـاط، وعلى كل حال فقـد شارك شيخـه فى بعض مشيختـه وإن أخذ عن تلاميذه وتلاميـذهم، بل الله ثرى الجميع بالرحمة والرضوان.

الآخذون عنه: منهم سيدى أحمد حجى كما فى فهرسة الشيخ الإمام سيدى جعـفر بن إدريس الـكتانى المعنونة بإعـلام الأئمة الأعـلام وأساتيـذها، بما لنا من المرويات وأسانيدها.

وفاته: توفـى على ما فى اللوح المذكـور أواخر الحجـة سنة إحدى وسـتين وألف.

٤٠٤ - عبد الله بن السلطان محمد الحاج الدلائى رحمه الله.

حاله: إمام فقـيه علامة مدرس، وقور حليم، جواد فـياض، سخى كريم، فارس شـجاع، بطل مـقدام، جمـيل الوجه والقول، حـسن السيـرة والفعل، ذو سمت حسن، وحال مستحسن، وفراسة صـادقة، ومؤانسة رائقة، ومعاشرة فائقة، من لدن صغـره إلى كبره، وحصل من العلوم، مـا يكل عنه راقم الرقوم، وله من مكارم الأخلاق، ما به كثيراً من أهل زمانه فاق، وطار صيته فى الآفاق.

ولما قلد والده ولاية المغـرب ولاه بسلا عامـلا فأقـام بها مدة نائبـا عنه فى الأحكام، وفصل مـعضـلات الخصام، وتصـدر للتدريس، وتصدى لـلقول بالحق والعمل النفيس.

وكان مواخيا له بها ومصاحبا، ومواليا له أيامها ومعه كاتبا، الفقيه الأجل، البركة الأفضل، أبو مروان عبد الملك التجموعتى، ثم نقله والده لمكناسة الزيتون وولاه بها مدة، وكان ينوب عنه تارة فى الحروب وتارة فى غيرها من ولايات الأحكام، وكان قد نزل على فاس بأمر والده حين تحالف أهلها مع الدريدى، وخالفوا على والده فحاصرها مدة من الأيام وأقلع عنها.

وخرج فيمن خرج من الزاوية مع والده عند الوقعة العظمى بها عليهم، وسار فيمن سار معهما لتلمسان، وأقام بها إلى أن توفى والده، فذهب للمشرق بقصد حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام.

فلما قضى نسكه وطاف وزار، بقى فى المشرق نحوًا من عامين اثنين، وانقلب راجعا عام خمسة وثمانين وألف فى جملة من أتى معه مسافرا من المشرق، فلما قربوا من الجزائر أُخْبِرُوا بثورة أهل تلمسان على الترك الذين بها، ولما وصلوا للجزائر وجدوا جيوش الترك خارجة منها قاصدة لقتال أهل تلمسان فخرجوا معهم من الجزائر، وأقاموا فى أثناء الطريق، وتأخروا عن القدوم مع المحلة بعد أن أَوصى المترجم رئيس المحلة باحترام أولاده الذين بالعباد، وأخبره بخبرهم فأَنعم له بذلك.

وبعد أن هدأت أصوات تلك الفتنة وخمدت نارها وتبين ما آل إليه أمرها، توجه المترجم لتلمسان، فوجد إخوانه أهل الزاوية الذين كانوا بالعباد قد رجعوا لفاس، ولم يبق أحد منهم يراعيه إلا ولده أبو العباس أحمد، فاستقرا بالعباد، بما لهما من الأهل والأولاد، إلى أن لبى المترجم داعى مولاه، وانتقل لما اختير له رحمه الله.

مشيخته: أخذ عن والده وجماعة من جلة فحول زاويتهم الدلائية.

الآخذون عنه: منهم ولده أبو العباس أحمد وجماعة.

وفاته: توفى بتلمسان أواخر سنة ستة وثمانين، أواوائل سبعة وثمانين وألف، ودفن بالعباد، ورثاه ولده المذكور بقصيدة طنانة رنانة اشتملت على اثنين وخمسين بيتا يقول فى أولها:

أَلا هل فتى مثلى كئيب أُراسله ... يسائلنى عن موحشى وأُسائله

يطارحنى أحزانه وهمومه ... وأشكو له قلبا دهته بلابله

لعل التأسى يعقب القلب سلوة ... ويخمد وجدًا ليس تخبو مشاعله

ويطفى بفيض الدمع حزنا تغلغلت ... بباطن أحشاء الحزين دواخله

ومنها:

فيا صاحبى ان كانت لى خير صاحب ... فساعد بجفن ليس يرقأ هامله

على من شجا المجد الصريح مصابه ... وأَضحت على رغم خلاء منازله

همام حوى المجد المؤثل يافعا ... كما حازه من قبل ذاك أوائله

قضى من طلاب العز أقصى مراده ... ولو عاش ما أعياه أمر يحاوله

لهفى على موت المكارم والعلا ... بموت كريم يخجل السحب نائله

وهى مذكورة بتمامها فى البدور الضاوية.

٤٠٥ - عبد الله بن المجذوب القصرى العبدرى.

حاله: ولى صالح، دال على الله تعالى ناصح، ذو سر لائح، وبرهان واضح، متبرك به حيا وميتا، رحل إلى حج بيت الله الحرام، وفاز بنيل البغية والمرام، وقفت على رسم إراثته بتاريخ رابع جمادى الأولى عام سبعة وتسعين ومائة وألف بخطاب الشريف مولاى أحمد بن على الحسنى المترجم فيما مر.

وقبر المترجم من المزارات المكناسية المقصودة للزيارة وحصول بركة الاعتبار، عليه بناء حافل، وبإزائه مسجد تقام فيه الخمس، وأشار لذكره العفيفى الوقاد، فى هداية السائل المطبوع بمصر سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف.

وضريح المترجم من أشهر الأضرحة بمكناس بالمحل المعروف بالكدية، لم يتزوج قط، ورثه بعد وفاته شقيقة أبو فارس عبد العزيز، ثم توفى وأحاط بإرثه ولده عبد الله دعى عب الذى من أحفاده الآن، سمى جده عبد العزيز وعبد الواحد، ووالد أخيهما السيد محمد بن سميه المدعو البنضاضى، وولد أخيهما إدريس، السيد محمد وشقيقة العلمى حسبما ذلك مثبوت عندهم بإراثات وظهائر سلطانية، وقع الوقوف عليها، حين منازعة أبناء عمهم لهم فى فتوحات ضريح صنو جدهم المترجم هـ من خط بعض شيوخنا الأثبات.

مشيخته: أخذ عن الشريف مولاى الرضى اليملاحى الوازانى، وأخيه مولاى المكى دفين رباط الفتح المتوفى فى تاسع رمضان سنة إحدى عشرة مائة وخمسين، عن والدهما سيدى محمد، عن والده مولاى عبد الله الشريف، عن سيدى على بن أحمد الأنجرى، عن سيدى عيسى المصباحى.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو العباس أحمد التواتى فى جماعة.

٤٠٦ - عبد الله بن محمد سميه بن الخياط بن محمد فتحا بن أحمد بن إبراهيم العطار الزرهونى الوربى القليعى منشأً عرف بالخياط.

حاله: علامة مشارك، متفنن نقاد خبير، دراكة فهامة، مدرس نفاع، فقيه نوازلى، انتهت إليه رياسة التدريس والنوازل بالزاوية الإدريسية من جبل زَرْهُون، إليه كان المرجع فى كشف عويصات المسائل العلمية هنالك، وكان يخبر عن نفسه أنه كان يحسن أربعا وعشرين علما.

ومن فوائده ما وجد بخطه على هوامش أواخر نسخته من شرح شيخه التسولى على التحفة ونصه: عَايَا[1] كاتبه عبد الله الخياط سمح الله له بفضله، جملة من أحبته الطلبة وفق الله الكل بمنه، فى مسأله الخنثى يولد له من ظهره ومن بطنه معا، على ما لحافظ المذهب ابن رشد فى مقدماته، وما للشيخ خليل فى توضيحه، وهو ما نقلة شيخنا الشارح رحمه الله، بقوله:

أُحاجى ذوى الحجا مفديهم بما ... لدى شرعنا نصا لذى العلم والحسب
وذاك أمرؤ يعزى له ابنان وهو أب ... وأم ووزع وأنف بينهما النسب
له إرثه من كل كالعكس ثم لا ... توارث بين ذين للفقد للنسب

وأجاب نيابة عنهم بقوله أيضا:

لك الله أيها المفدى لكلنا ... بأنفسنا والأهل والأم ثم الأب
تعاى بما لنجل رشد وخلنا ... بخنثى له الولادتان ولا عجب
فلله أبدا ما يشاء لملكه ... فسبحانه من واهب يا أَخا الأدب

ومعنى قولنا ووزع أن تجعله أبا لهذا الولد وأما للآخر هـ.

مشيخته: أَخذ عن الشيخ بدر الدين الحمومى، وأبى الحسن على التسولى وغيرها.

الآخذون عنه: منهم الشريف سيدى الفضل الشبيهى إمام الضريح الإدريسى وخطيبه، والشريف مولاى الحسن بن الشريف العلوى فى جماعة من الأعلام.

وفاته: توفى بالوباء بمدشر موساوة أحد مداشر زرهون، عام خمسة وتسعين ومائتين وألف، ودفن بضريح سيدى عدو خارج الزاوية الإدريسية رحمه الله.

(١) عَايَا فلانٌ: أتى بكلام أو أمر لا يُهتدى لوجهه. وصاحبَه: ألقى عليه كلاما لا يُهتدى لوجهه.

٤٠٧ - عبد الله بن العرفاوى الخيارى المكناسى.

حاله: فقيه أديب، له مشاركة فى فنون، مدرس مجود، شاعر مفلق، انتدبه بعض الفاسيين لإقراء أبنائه القرآن العظيم، فأسعف رغبته وانتقل معه لفاس، وأخذ عن جهابذتها النقاد، حتى انفتح له باب تحصيل العلوم العقلية والنقلية، وبرع وتصدر للإفادة فى القرويين وغيرها، ثم رشح من انتدبه لإقراء أولاده لوظيف بثغر طنجة، فرحل فى معيته وأقبل على بث العلم ونشره، وتعاطى خطة الإشهاد، فكان من المبرزين بطنجة، لقيته بها عند وجهتى لأداء فريضة الحج عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف ناشراً للعلم مفيدا، وطالعا فى سماء النجابة والنزاهة بَدْرًا سعيدا، ولم يزل جميل السيرة، محمود السريرة، إلى أن لبى داعى مولاه.

مشيخته: أَخذ عن السيد فضول السوسى، والسيد فضول بن عزوز والسيد محمد القصرى، والسيد محمد بن عبد السلام الطاهرى، والسيد محمد بن الحسين العرائشى، والسيد أحمد بن الخياط الزكارى، والسيد أحمد بن الجيلانى الفيلالى، والسيد الفاطمى الشرادى، والشريف مولاى أحمد البلغيثى، وأبى محمد عبد السلام الهوارى المتوفى سنة ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف، والحاج محمد فتحا جنون يدعى جنيون مصغرا المتوفى عشية يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف وغيرهم من الأعلام.

شعره: من ذلك قوله مجيبا صاحبنا الفقيه العلامة الأديب السيد محمد فتحا ابن عبد الكبير بن الحاج السلمى الفاسى:

وافى كتابكم السعيد موشحا ... بفرائد المكتوب والنفحات

أبذرت فى قلبى الكئيب حروفه ... وسقيتها بفرات ما العطفات

طابت محبته بشمس ودادكم ... ولو أنها زرعت بأرض موات

عـجل لقطف ثمارها بوصـالكم قـبل الفوات بـدفعـهـا العبـرات

فـعلى مـحـمـد الأديب تحـيـة مـارق شـعـر فى بديع صـفـات

وقوله مجيبا المذكور أيضا:

قـريبـا يجـود الإلـه بجـمـ ـعنـا بكم فى قـريب قـريب

فنـار بعـادكـم أحـرقت فـؤاد لمحب الكئـيب الكئـيب

وجـسـمى بمكناسـة قـاطن وقلبى بـفـاس نحـيب نحـيب

يحـن إلى فـاضـل مـاجـد حـبـيب نجـيـد أريب أريب

فـيـارب جـمـعًـا به فـعـسى ليـلا أمـوت غـريبـا غـريب

فـمـن بوصل بعـيـد انفـصـا ل بجـاه النبى الحـبـيب الحـبـيب

عليـه صـلاة الإلـه الذى علينـا عـتـيـد رقـيب رقـيب

وفاته: توفى بطنجة فى شعبان عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

٤٠٨ - عبيد المدعو المظلوم.

دفين عاصمتنا المكناسية، ولا تعـرف له ترجمة فيما أعلم، ويحكى أنه كان وشى به بعض الجهلة لسلطان وقته فأمر بضرب عنقه، فصار رأسه بعد انفصاله عن جسده ينادى: عبيد المظلوم، والله أعلم.

٤٠٩ - عبد الحق قاضيها أبو محمد بن سعيد بن محمد المكناسى.

حاله: من أهل المعـرفة والحصـافة[1]، قائم عـلى كتاب ابن الحـاجب فى

---

٤٠٩ - من مصادر ترجمته: نفح الطيب ٥/ ٣٥٠.

(١) فى هامش المطبوع: «مـصدر حصف ككرم واستحكم عـقله فهو حصيـف محكم العقل والحصافة ثخانة العقل وجودة الرأى»

مذهب مالك، ممتاز به فيما دون تلمسان، كما لابن غازى والمقرى فى النفح نقلا عن نفاضة الجراب لابن الخطيب وتصدر للإقراء والتقييد فما شئت من اضطلاع ومعرفة واطلاع، وبث العلم ونشره، فأفاد وأجاد، وهو من جملة مشايخ مكناسة الذين لقيهم ابن الخطيب السلمانى.

مشيخته: أخذ عن الأخوين أبى موسى وأبى زيد ابنى الإمام رحمهما الله.

الآخذون عنه: منهم أبو العباس ابن القاضى صاحب جذوة الاقتباس وناهيك به قال: قرأت عليه الخارمة، على الرسالة الحاكمة، وأذن لى فى تحمله، وأخذ عنه صاحب نيل الابتهاج كما قال ذلك عن نفسه فى الكتاب المذكور، ولسان الدين ابن الخطيب كما فى نفح الطيب.

مؤلفاته: منها جزء نبيل على فتوى أبى بكر بن العربى المسماة بالحاكمة، سماه الخارمة.

وفاته: توفى بعد نيف وستين وسبعمائة.

٤١٠ - عبد الحق الزرهونى.

دفين جبل زرهون، وهو المعروف اليوم لديهم بسيدى بوحبق شهير الضريح بحومة خيبر، من الزاوية الإدريسية والله أعلم.

حاله: شيخ جليل، محب صادق ملهم، ذو فكر ثابت، وشوق إلى الله دائم، عظيم الإفادة بالهمة والحال، متمكن مخلص، ذو قدم ثابت، ودين متين، كثير الاتهام لنفسه، من الأولياء الأكابر الصالحين القادة الأماثل، تعرض لذكره أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتى فى يائيته التى توسل فيها إلى الله بأهل الله إذ قال فيها:

وإن جئت عبد الحق فاجنح لبابه بزرهون قد أمسى عن الشر نائيا

وذكر فى شرحه لها أنه معـروف بزرهون من الأكابر، وأنه دفن بحمام الحرة من مكناسة الزيتون لفظه.

قلت: الذى فى ممتع الأسمـاع وهو الأصل الذى اعتمد التسـتاوى فى نظمه المذكور كمـا أفصح هو بذلك عن نفسه، أن المترجم وهو عـبد الحق الزليجى دفن بجبل زرهون، ومثله فى ابتـهاج القلوب فى ترجمة المتـرجم، وهو الصحيح والله أعلم.

مشيخته: أخذ عن أبى العبـاس أحمد زروق، وأبى العباس أحمد الحارثى، واختص بالشيخ أبى عبـد الله الصغير السهلى المتوفى سنة ثمان عشـرة وتسعمائة، وهو أخذ عن الشيخ الجزولى.

الآخذون عنه: منهم الشيخ عبد الرحمن بن عياد المجذوب.

ولادته: ولد بزرهون فى العشرة الثامنة من القرن التاسع.

وفاته: توفى سنة إحدى وأربعين وتسـعمائة، ودفن بجبل زرهون رضى الله عنه، كذا فى ابتهاج القلوب.

٤١١ - عبد الحق أبو محمد السحيمى.

حاله: قال فى حقه صاحب الدر المنتخب ما نصه: الكاتب الذى حمى حيد بدور أفكاره، وطار طير البـيان من أوكاره، خـاتمة أهل الأدب، وسراج من تأدب وتهذب، هـ.

وبالجملة فقد كان صدر حملة الأقلام، وواسطة عقد البلغاء الأعلام، ناظما ناثرا، محنكا خـبيرا مـاهرا، إذا نظم سحـر الألباب، وإذا نثر أتى بآيات إعـجاز وإعجاب.

شعره: من ذلك قوله مادحا مخدومه السلطان الأعظم سيدنا الجد مولانا إسماعيل:

أمن أرضهم ريح الصبا تتضوع ... ومن دونهم بدر الأسنة يلمع
وفى حيهم ثار الهياج عشية ... فبات زئير الأسد فى الحى يسمع
إذا ارتحلوا ليلا فضوء رماحهم ... لهم فيه عن ضوء الكواكب مقنع
وبين أسود الغاب بيض أوانس ... وهل فى أسود الغاب للناس مطمع
وعيشك ما أدرى وأين خيامهم ... نساء أم الغزلان فى الخدر رتع
وما أنكرت عينى من الحسن ما رأت ... وإن الشموس فى الهوادج تسطع
وتحت رماح القوم كل مدجج ... ظلوم غشوم بالدماء مدرع
إذا نظرت عينى غزالا مبرقعا ... أشارت لليث فى الحديد مقنع
وما ضربوا حمر القباب عليهم ... وفيهم جبان بالنزال يروع
وفى البلدة الحمراء شمس منيرة ... تراقبها عيناى من أين تطلع
لها فى سواد القلب أشرف موضع ... وليس لها عند الجوانب موقع
فلله ما حملت قلبى من الهوى ... وفيه كناس للظباء ومرتع
ألم يأن للحى الذين ترحلوا ... رجوع وهل عصر الشبيبة يرجع
سقى الله أرضا حلها نور شمسه ... له فى الحشا عندى شفيع مشفع
ولا روع الرحمن سرب عقائل ... نوازع آمالى إليهن نزع
لهن عهود لا تضيع حقوقها ... ولست أرى عهد الكرام يضيع
فيا أخت حامى الحى يوم نزالهم ... ويا بنت من يدرى العفاة وينفع

ودادى محفوظ على عهدته ... لديكم أم الود الصميم مضيع
رعى الله أيام الشباب فإنها ... مواسم فيها للنفوس تمتع
وحى القصور الخضر صوب غمائم ... مباركة تهمى عليها وتهمع
قصور بها المنصور يحمى حقائقا ... من الدين فيها الخير للخلق أجمع
يجهز إسماعيل منها كتائبا ... تكاد قلوب الشرك منها تصدع
فلله منه النفس والحرب ترتمى ... بموج المنايا والأسنة شرع
وما افتر ثغر قبل تقبيل سيفه ... ولله سر فى الخلائق مودع
وكم ليلة باتت بها الخيل عوما ... بحورا من الظلماء والناس هجع
وما سر منه النفس غير سريرة ... يخب إلى الأعداء فيها ويربع
ولم تك أوقات الرخا تستفزه ... ولا كان يوما فى الشدائد يضرع
فلله ما ضمت ثياب أبى الفدا ... من المجد والتقوى وما هو يصنع
يباشر فى كل الأمور أموره ... بقلب نقى للمكارم منبع
أعز الإله الدين بابن نبيه ... وما أن يعز الدين الاسميذع
فيا ابن الألى سارت بمدح جدودهم ... رفاق لها بين السباسب مهيع
ألستم سراة المسلمين وأسرة ... محبتهم يوم القيامة تنفع
إذا أطعموا يوم الوليمة أشبعوا ... وإن طعنوا يوم الكريهة أوقعوا
ألستم شموسا فى الورى ووجودكم ... أمان لهم من كل ما يتوقع
إذا سدتم الأملاك شرقا ومغربا ... فما سادهم إلا النبال الموقع
وإن كان فيهم للخلافة زينة ... فمنصبكم فيها أجل وأرفع
بقيت لهذا الدين تعلى مناره ... وقدرك من بين الملوك مرفع

وقوله وقـد أمر السلطان المذكور كتـابه بوصف قضيـة حال قصهـا عليهم، ومراده اختبـار قرائحهم، وذلك أنه كان يوما مع بعض جواريه وقد حـملت سيفا وسارت أمامه:

حملت سيـوف الهند وهى غنيمة عن حـملهـا بـلواحظ الأجـفـان

حـسب الفـتاة جـلالة ومـهـابة عـز الجـمـال مـهـابة الـسلطان

***